
أحمد إسماعيل
سدوم وعمورة
صراع الفاحشة والنبوة
بيت الياسمين

مقدمة

عندما سألتني زوجتي عن السبب في الكتابة عن لوط عليه السلام، قلت على الفور «ها أنت قلت لوط ولم تقولي نبينا عليه السلام، وكلما ذُكر يقال مثلما قلت، لوط»، ويقف هكذا نبينا لوط عليه السلام، أراه نبيًا مظلومًا من بني الإنسان، اسما ومعني، فها هو عندما يذكر لوط فإن أغلب الناس لا يقولون نبينا، وينسون دائمًا أن يسلموا عليه، ليس من باب التجاهل، وإنما لارتباط الاسم بالمعني السيء الذي يعرف به قومه، بل يأتي على الفور ذكر الفاحشة التي ارتكبها قومه، الذين يعتبروا أول من ابتكر الفحش في الدنيا، بل في العالمين، فلم يسبقهم أحد بهذا الفحش الذي ابتدعوه، وما زلنا نعاني منه بني الانسان حتى تقوم الساعة، فمن مغبة أفعالهم النكراء هو إتيان الذكران في العالمين، وهو فعل عظيم ترتج له السماء ولولا حلم الله علينا لكنا خاسرين ضائعين، وكما قلنا إنهم لم يسبقهم أحد من قبل، وابتكارهم هذا أصبح وباءً عم العالم أجمع منذ أن ابتدعوه وحتى يومنا هذا، والعلاج من أوهن ما يكون هو التقوى.

كما أني هممت بأن أوضح أمرًا، ولست آت بجديد أو مبتكرًا لتفسير فريد، ولكنني أعنى ببيان الأمر لهذا الجيل الذي إن تُلي أمام أحد منه اسم لوط فعلى الفور يظن أن المقصود هم

الشواذ، أو كما يطلق عليهم هذه الأيام المثليون، فلا يذكروا نبينا لوطًا عليه السلام ويعرفوا وكيف كافح وناضل للقضاء عليه، بل لا يعلمون إلا فعل اللواط، مع العلم أن معنى كلمة لوط أبعد ما يكون عن أفعال قومه الغابرين.

ولم يعد الشذوذ الجنسي بين الرجال والنساء محط اهتمام ومتابعة فحسب، بل إن القوانين أصبحت تسن لحمايتهم والدفاع عنهم بحجج عديدة أولها الحريات الشخصية، ومن أجل ذلك ينتفض العالم لأي إساءه لهم، وأصبحت أي دولة أو مؤسسة أو جمعية لا تساعدهم ولا تدعمهم متهمة بالتخلف، وقتل الحريات، بل ووجب معاقبتها بشكل ما، ووصل الأمر إلى أن حملات الانتخابات للدول الكبرى تعلن حمايتهم ودعمهم، ووضعهم في الأولويات، بهدف كسب الأصوات، وكل ما أخشاه وأخاف عليه هو أن يظن الجيل الصغير الحالي والقادم، أن الشذوذ أمر طبيعي وغير محرم.

ولقد انجرفت العديد من الدول تتبارى في إثبات أن للشواذ حقوق، كما أنهم لا يخجلوا من إعلانهم بحمايتهم حتى أصبح الإعلان بأنهم شواذ مثليون أمر طبيعي، وأصبح منهم الوزراء والمسؤولين الذين أصبح بيدهم مصائر الناس، والأمر لم يقف على ذلك بل نجد لهؤلاء مكاتب في البلدان العربية من المسلمين والمسيحين تدافع عنهم، ومن

لم يفعل منهم يكونوا من الدول التي تحرم مواطنيها من الحريات الشخصية، ويتسلط عليها الأضواء والدعايات من جميع أنحاء العالم بأنها دول ظالمة تحرم مواطنيها من أبسط الحقوق الشخصية لهؤلاء الشواذ الخارقين لتعالم رب العالمين.

وأزيد على ذلك أنه لا يزال نبينا لوط مظلومًا، فقد ورد في الديانة المسيحية أنها لا تعترف به كنبي مرسل، بل هو من الصالحين، وليس من أصحاب الرسالات من رب العالمين، ولم يكتفوا بذلك بل إنهم اتهموه بأنه قد خلا بابنتيه الاثنتين ريثا وذعرتا وواقعهما وأنجب منهما أولادًا، وهو ادعاء بريء منه تمامًا.

وأضافوا أيضا إلى ذلك أن ابنتيه كانتا تعطياه خمرًا لكي يفعل فيهما فعال الزنا وهو مخمور، وكان الظلم الذي وقع عليه ليس اسمًا فقط، فإن ذكر اسمه مقرون بقوم فاسقين، بل أيضا بعدم الاعتراف به كنبي، بل من الصالحيين فقط، كما ورد في الإنجيل، وزد على ذلك الظلم ظلمًا ثالثًا وهو اتهامه بفعل الفاحشة من ابنتيه ذعرتا وريثا، وإنجابه منهما، وإن كان مجال السرد لا يتسع فقد اكتفيت بالتنويه إلى ذلك.

وكان على أن أقول قولي كما عرفته، واطمأن إليه قلبي، ووجب على أن أقص الأمر كله، واستعنت بما أمتلك من

الكتب والمراجع، واستمسكت بالقرآن والإنجيل وباقي التدابير، وذلك حتى يكون تبيانا وتفرقة بين أفعال قوم لوط وبين نبي الله لوط عليه السلام، وما دفعني لهذا الاستبيان هو الغيرة على الدين وبيان الحرمات، وان التذكرة فيها إفادة يستفيد منها الكثير، وهدانا الله إلى الحسن في القول، والصحيح في العمل.

وآثرت أن أكتب هذا الكتاب في شكل رواية ليستسيغها الناس (سيرة غيرية) لتصل إلى الجميع وأعتذر إن سهوت أو خفي عني أو ألم بي جهل في السرد، كل ما أردته هو المعرفة، ففيها أمان وراحة وهيا بنا نبدأ حكاية نبينا لوط.

الأول

لوط بن هاران تاح أو حاران أو لآران، ابن أخي الخليل إبراهيم، ولد نبي الله لوط في أرض بابل، ومع قدوم المساء وفي دار آل هاران كانت هناك حالة من الترقب والهدوء تسود البيت، والجميع ينتظر القادم من زوجة هاران ألا وهو المولود الذي سيأتي، والذي حان موعد ولادته، وبالرغم من القلق البادي على الوجوه إلا أن هناك حالة من السكينة والتي عمت المكان، مصحوبة بالبهجة، وكذا الابتسامات تملا الثغور، والجميع موقن أنه يوم طيب، وبعد الانتظار انتفض كل من في البيت حالما صاحت الأم تعلن توجعها وشدة آلامها، ومع ازدياد الصيحات ترشئب الوجوه وتعلو الأنفاس ثم تهبط بعد انتهاء الصيحة، ومع ازدياد الصيحات وقف الكل منتظرًا القادم، ثم تغيرت الصيحة وكانت من القادم نفسه، ألا وهو المولود الجديد وما إن وضعت زوجة هاران تاح وليدها حتى أسرع أبيه إليها، وهو مشتاق لبيان نوع القادم إليه، وما إن دخل إلى زوجته ورآها باشة الوجه تنظر إليه وإلى وليدها، وكأنها تقول له ها هو ابننا إنه ذكر وما تطلع إليها حتى انتقلت إليه هذه الشاشة وأسرع إليه ينظر إلى الصغير ،ويود أن يحمله فأبت أمه، ولم يكف عن حمل الصغير إلا بعد ان طلبت منه أن ينتظر حتى يشرب لبن

السرسوب، وحل الصبح والجميع في سعادة غامرة، ولهو بديع، ثم دخل هاران إلى الأم وطلب منها أن يذهب بالمولود إلى أخيه إبراهيم، وما إن سمعت ذلك تهللت وأوثقت لفافة الصغير وأحكمتها عليه وناولته الصغير ليباركه إبراهيم عليه السلام، وما إن حمله إليه حتى علا صوت المولود وزادت صرخته دون توقف، إلا أن الأب لفه في عباءته، وسرعان ما حمله إلى بيت أخيه إبراهيم عليه السلام كي يباركه، وكان صراخ الرضيع شديدًا، وما إن دخل به إلى أخيه إبراهيم وزوجته سارة شقيقة أم لمولود، وما إن شاهد إبراهيم أخاه وما حمله حتى غمرته البهجة وفرح بالمولود، وقام من مقامه مقبلاً على المولود يحمله بين يديه، وسرعان ما سكن الرضيع وهدأ وأوقف البكاء وظل إبراهيم عليه السلام يداعب الرضيع ويدعو له دعاء طيبًا، وكذا لأمه ولشقيقه، وقضى الأب والابن في بيت أخيه، ثم علم منه أنه متوجه إلى بلاد الكلدان للتجارة، وانه يطلب منه ان يكون الرضيع والزوجة تحت رعايته إلى أن يأتي من رحلته، وفرح بشدة خاصة أن قلب إبراهيم وساره زوجته قد تعلقا بالمولود وأحباه حبًا جمًا، وأنهما لم يرزقا بالأولاد بعد.

ومن هنا فقد تولي إبراهيم عليه السلام رعاية وشئون الطفل، وأدخل على حياة إبراهيم عليه السلام وسارة السعادة والهناء والطفل ينمو ويترعرع في بيت النبوة،

وينعم من خيره ويرتوى من تعاليمه، ولأن إبراهيم نبي نقي جميل محب للصغير، فقد رعاه كأب وعم، فشب الصغير معه لا يغادره أبدًا أينما حل، حتى في حله وترحاله من بلاد العراق إلى بلاد الشام، وأقام معه في فلسطين وكذا عندما رحل لمصر، فهما معا لا يفترقان أبدا فقد كان لوط أول طفل متبنى من جانب إبراهيم عليه السلام وهذا التبني حد البنوة ويزيد، وكان طبيعيًا أن يشب لوط في هذه الأجواء الإبراهيمية النورانية، وتعلم كيف يتعامل مع الجميع، ويأخذ من أبيه بالبنوة كافة الأمور الدنيوية والدينية، كتعاليم ربنا الكريم، وقد كان أول من آمن به وبدعوته، بل كان مساعدًا جيدًا ومبلغًا لما يطلب منه.

وإن سُئل عن إبراهيم فهو معه وإن سأل عنه فهو بجوار إبراهيم عليه السلام، وكان الخليل رفيقه وأنيسه بل وفي أحيان كثيره خادمه، وهذه الملاصقة والتجاور والملاط فلاط به لطًا حتى أصبح ينادى الصغير الذي شب بلوط.

ما كان من لوط إلا أن ينهل من علوم عمه وأدبه حتى نال العلم، وكان الشاب لوط نقيًا تقيًا ورعًا، ينهل منه كل شيء، ثم كان معاون ومساعد جيد في نشر الدعوة الحنفية والتوحيد وعبادة الواحد الأحد، وكم لاقى مع الخليل إبراهيم عليه السلام من الصعوبات والويلات ممن يأبون

نشر الدين سواء من الكفار أو المنافقين والكارهين الحاقدين من انتشار الدين الحنيف، إلا أن رب العزة كان حليفهم أينما كانوا وحلوا.

وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ

وما أن أمر الله صدر بالهجرة، وأن على لوط أن يهاجر إلى أرض الله داعيًا في مكان آخر، فقد كان إبراهيم يدعو من أجل انتشار الدعوة وامتدادها، فعلى لوط الهجرة، وما إن علم لوط بالدعوة من قبل إبراهيم عليهما السلام وأذن له الرحمن أن ينطلق إلى عالم جديد، وأرض أخرى ليهدي الناس وينشر دعوة ربه إليهم بعيدًا عن مجاورة الحبيب عمه النبي الخليل إبراهيم. وإن كان البعد به مشقة لترك جوار العم والمعلم والمربي والنبي، ولأنه أمر من الله فلبى لوط النداء، ولم يبد عمه الخليل أي حزن على الفراق، فأمر الله نافذ، فكتم إبراهيم ما في نفسه من اشتياق وودع لوطا لصيقه ومن لاط به طوال هذه الأعوام، بل شجعه ودعمه بما يملك من علم وإرشاد، ونبهه بما سوف يلاقى من مشاق وصعوبات وأن عليه الامتثال إلى أمر الله، فكان دائما الدعم والمتابعة حتى بعدما هاجر وبدأ دعوته في سدوم وعمورة ومن حولها، وهي القرى التي يدعو فيها للدين الحنيف، وما إن حل موعد الوداع حتى قال للخليل إبراهيم عليه السلام:

إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ

فهاجر إلى قرى عمورة وسدوم، واستقر هناك وعاش فيها وتزوج من نسائها وتعلم لغتهم، وكان يدعو أهلها، ولاقى ما لا يراه بشر، إلا أنها رسالة من رب الكون – وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ – ولا بد من إتمامها، ولو لم يرضوا من أرسل إليهم.

الثاني

مدن السهل الخمس

من مدن السهل الخمس سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم وصواغر قرى في بلاد الشام، وكانت سدوم هي أكبر هذه القرى، وما أدراك ما هي، فقد كانت فيما سبق عامرة زاخرة بالخيرات الزراعية والمراعي والتجارة وكل أنواع المنعمات، حتى تحولت هذه القري وأصبحت ومن فيها من الفاسقين اللاهين إلا عن المتع وسرقه المتاع، وأصبحت باغية كافرة تعبد الأصنام نافرة من الخير قابله للشر، ناهية عن الأخلاق داعية إلى الفجور والفسق العظيم، لا ينطق أهلها إلا بالكذب، ولا يقولوا إلا الفج منه، ولا يسعوا إلا في الخطف أو السرقة أو التعدي والاعتداء على أنفسهم والغرباء الذين يحلون على قراهم للتجارة، أو حتى للمرور فلن يجدوا إلا الشرور، فقد ابتدعوا كل أمر مشين، بل وتباروا في إعلانه، ومن يسن سنه سيئة، يصيح بها، سرعان ما تنتشر، ومن يرتكب جريرة لا يعبأ بها، بدلوا ما ألف عليه آباؤهم الأولين والآخرين في لغتهم وأحاديثهم وأعمالهم، حتى في أزيائهم وأشكالهم، فهم من اخترع الحناء وزينة الوجوه والملبس والمأكل أيضا، فقد حلوا الإزار ورفعوا العمم، وهرولوا أزيائهم ولونوا وجوههم وأجسادهم وألبستهم مملوءة بالألوان، كما أنهم يضعوا

العلك والحبوب ويمضغونها، خفوا لحاهم وشواربهم، زادت حركاتهم في حديثهم، نعموا الأصوات، وكل من يفجر منهم يكون قدوتهم، وما إن ينعموا بالسرقة أو النهب يهموا إلى لعبهم ولهوهم في كل المباريات والمسابقات، سباق الديوك أولها، وكل لعب عليه مراهنة، وإن هدأوا وسكنوا في أماكنهم ضرطوا فيما بينهم، فلا سترة تسترهم، أهملوا أولادهم، وتاجروا فيهم، وأحلوهم لمن يدفع لهم، ارتكبوا الكبيرة لم يُر مثلهم من العباد، فقد صاحبوا ورافقوا الشياطين، ففسقوا وانبروا لاهين مفسدين مضللين لأنفسهم قبل أهلهم، فكانوا غلاظ القلوب معدومي الضمير، لا خل لهم إلا ملذاتهم، بدلوا ناموس الدنيا فعاشروا أنفسهم وعاقروا الخمر، فكانت ملاذهم ولذتهم، كما أنهم قد أفشوا الوباء لبعضهم البعض، واستغن الرجل بالرجل والرجال بالغلمان، وكذا استغنت النساء عنهم ففعلن مثلهم وانتشر فيهن السحاق وأصبحت مساحقة النساء وباء بينهن.

ونزيد قولا فيما فعل هؤلاء القوم، فلم يفرطوا في أنفسهم فقط، بل إنهم أفسدوا ماضيهم، ممثلا في التقاليد والأعراف الراسخة الثابتة على مدار قرون سابقة، فقد عرف عن هذه الحقبة من الزمن وما سبقها في أن للعرب ومن يقيم فيها من غيرهم لهم العديد من الأعراف والعادات والتقاليد، وأن هذه التقاليد القديمة لها قدسية ما في النفوس، سواء في الملبس

والمأكل أو حتى في طقوسهم اليومية كالبيع والشراء، فكل هذه آداب مكتسبة على مر العصور، من يخالفها غريب، أو متمرد، وهم كانوا قلة بل وإن فعلوا فهم من المخالفين والمختلفين عنهم فيكونوا منبوذين.

فعلى سبيل المثال؛ إن لهذه القرى وعموم بلاد الشام زيها الخاص، زي متعارف عليه لا يتغير أو يتبدل إلا في فصول الصيف والشتاء، بل من السهل لأي من الناس أن يتعرف على موطن المرء من زيه الذي يرتديه، لأن كل قرية لها زي بشكل ما، حتى العمامة فهي جزء من الشخصية والهوية، فهذا من عمورة لأنه يرتدي العمامة تبدء من مقدمة الرأس قبل حاجب العين، وحتى القفا، أي كامل الراس، وتمتد إلى الرقبة لتجنب الرمال الليلية، وهذا من سدوم فلهم زي ملاصق للجسم وعمامة تكسو الراس فقط، وهذا من قرية أدومه ملابسهم فضفاضة ويضعون على وسطهم شريط من القماش يلتفوا به، وهو طويل ويربط بإحكام وعمامة صغيره لا تغطي الأذن، وكذا قرية ساعور وصواغر حتى أصبح زيهم هو عنوانهم ولا اختلاف بينهم إلا في الشكل وطريقة الارتداء للعمامة، وكانت شيمة هذه الملابس الوقار والاحترام والعمامة هي التاج الذي يجب الحرص عليه فميزان الرجل العمامة، ودونها يعاب عليه بل ويلام ويوبخ أيضًا، وكان له جزاء يوقع عليه، سواء بنظرات العتاب، وتلميحات ممن

يراه، أو رفض البيع والشراء، وقد يصل إلى اللوم والشكوى لكبيره من آل بيته، سواء والده أو زعيم أو رئيس، وكان هذا متعارف عليه بينهم.

حتى أتى هؤلاء الفاسدون فغيروا ورفعوا الحجب، وتماروا فيها حتى وصل الأمر إلى عدم الاعتبار لأي أعراف أو آداب قديمة، أو حتى متعارف عليها فقد حطموا المسلمات، فها هم عندما يرتدون زيهم يخالفون ما ألف عليه أسلافهم وجدودهم، فملابسهم مهرولة مفتوحة الإزار، عريها أكثر من سترها لأجسادهم، ولا يرتدون العمامة.

وكذا كلامهم وحواراتهم مع بعضهم البعض، رجالاً كانوا أو نساء، حتى أطفالهم نمو على المخالفة والاختلاف. إلا أن اليقين التاريخي يقول أنهم أول من فكر فيما هو مخالف ومختلف عن منظومة الحياة في هذا الوقت، بل إنهم تركوا هذا الميراث إلى يومنا هذا، وعد ذلك وقفهم الذي تركوه للناس، وما زال، وما أفظعه وأوسخه، فما يزال يلوث وجه التاريخ لبني الإنسان، وحتى تقوم الساعة، فالسبق لهم في كيف تكون الخلاعة في كلامهم حواراتهم مع بعضهم، أو مع الأغراب ممن يأتون إليهم ليتاجروا ويعملوا معهم، فالخنوع والسهوكة بينهم واضحة، ما إن تسمع أصواتهم في حوارهم حتى تلفت على الفور بل وتدرك أن هؤلاء بهم أمر

غير معلوم، فلهؤلاء أصوات ناعمة ملفتة، لا تملك كنهها أو تحددها، فهي قريبة من أصوات الأطفال وبحة النساء ومع ذلك هم من أراذل الناس.

ومزيد من البدع النكراء التي ابتكروها بينهم ألا وهي أن يضعوا في أفواههم علكة يلوكونها، ويحركوا بها أفواههم طوال الوقت، ويلون كلامهم حين يتحدثوا، ولا يتوقفوا عنها ولا يلقوها أبدا طالما يتكلموا.

وهؤلاء تجدهم في كل حركاتهم أو حتى سكناتهم يقومون بكل الحركات غير السوية الغريبة، فهي ليست من شيم الرجال، كما أنهم في قعودهم لا يستقرون أبدًا، دائمو الحركة دون سبب ما، وفي مجالسهم الهرج والمرج والضحكات الماجنة، وترددهم البادي عليهم في كل قول وفعل، واستخدامهم لأيديهم وأصابعهم وإشارتهم غير المفهومة التي يمارسوها، وابتكروا أن يطرقعوا أصابع أيديهم، وأرجلهم بشكل مفزع، واللعب بها وفيها ولا يمانعوا أبدًا في الطتيز أمام الكافة، أو فيما بينهم أي إخراج الروائح الكريهة بصوت أو دون.

أما ما كانوا يتزينون به فهو الذي قلب وبدل وعدل مفهوم ومعني العادات والتقاليد العربية البدوية الراسخة، فكانت زينة الرجل الشهامة والشجاعة وإثبات الرجولة ونيل

الصفات النبيلة من أهل القرية أو القبيلة أو المجتمع الذي يحيا فيه، وكذا الوقار في القول والملبس، إلا أن هذه القرية فاقت وحطمت كل ما هو ثابت ومستقر ومشرف، فقد تحولوا إلى أن افضل ما فيهم هو من أجاد التزين في شكله وملبسة، ومن يظهر العري وفك الأزرار، حتى أن زينتهم كرجال فاقت زينة النساء، فهم من أبدع وضع الحناء الملونة على اليد والأرجل، بل ويتباروا فيما بينهم من أجمل شكلاً ولونًا، ونضيف إلى ذلك ملابس أهل هذه القرية فرداؤهم كان ما خف ارتداؤه، وكشف عن أبدانهم ليثيروا بعضهم البعض، فهي مفكوكة أغلب الوقت لم تكن محتشمة أو حتى ملمومة على البدن.

وكانوا إن اجتمعوا على أمر هين أو كبيس فهم في لهو وعبث، فلن تجدهم متجاوبين أو متفقين، وقد علم زعماؤهم ورؤساؤهم بأمرهم فقادوهم إلى حيث يشاؤوا هم، وشجعوهم على الفتنة والسرقة والنهب والسلب والابتكار فيه، وفي سبيل ذلك جندوا لهم كل المساعدات لتساعدهم على ذلك، فلا مسائلات أو محاكمات، بل إن كل أعمالهم حلال لهم لا عقاب فيه، حتى القضاة لا يأتي عليهم ويحلل لهم أمرهم، وإن تشاجروا فلهم ناموسهم الهين السهل فطمئنوا فأطاعوا سادتهم وزعماءهم، فكان سبيلهم أن يزدادوا ثراء، واهل القرى كانوا يفعلون ما يشاؤون من المتع

والمتاع والجديد في السرقة وكسر الملل، فهم إما متشابكين متصارعين فيما بينهم والتشابك للفوز من يغلب من ومن يحصل على مقابل أي رهانات على كل أمر يمارسونه، حتى أنهم كانوا يرمون الجلاصق ، بل وأبدعوا في تناقر الديكة، وكل هذه البدع لم تكن موجودة، بل إنهم ابتكروا ما يجعلهم مختلفين فهم في معية الشيطان، يسمعون له، والغريب أن هؤلاء القوم كانت حياتهم من قبل العمل والزراعة والتجارة، وكانت مزارعهم يضرب بها المثل، حتى تركوا كل ذلك وتحولت حياتهم.

الثالث

بداية المشاق

أتى لوط عليه السلام إلى هذه القرية، ووجد ما وجده من الانفلات والتشتت، ووجد أناسًا مسرفين، كانوا ممن يضعوا الأمور المهمة الحياتية أو الدينية أو الصحيح منها وكل الأشياء في غير موضعه، فالسرقة يحللونها، والنكال ببعضهم يبررونها، حتى إتيان بعضهم الفاحشة يتقبلونها، ولو على الملأ كما أنهم خارجون عن الحدود المتعارف عليها سواء عرفًا أو التزامًا فقد خرقوها بكل ما فيها.

ولا نملك القول أنهم كانوا قوم يجهلون ما يفعلون، بل إن جميعهم يفعل فعل الجاهلين عن قصد، وهم فخورين يعلوهم الكبر والتحدي بإعلانهم العام بهذه الافعال النكراء، وهم على بينة من العاقبة التي قد تحل عليهم، ومع ذلك ينكرون أنه قد تحل عليهم العاقبة، بل هم قوم نافرون يسفهون بل وماجنون فلا حياء بينهم، فهو مختلط بالجد بل معدوم، وتجدهم لا يبالوا بما يصنعون، كما أن أهل هذه القرية لا حدود لهم في كل غرائزهم، بكل أنواعها حسية أو سمعية أو حتى جنسية، بل هم من كانوا المتعدي والمتجاوز لكل نواحي الدنيا نهارًا وليلاً، فلا حد لشهواتهم، فقد تركوا

وأهملوا ما هو صالح لهم إلى ما لا يصح أو يكون إلا خطيئة مثل حب الشهوات من الرجال والأطفال.

وكان من خصال هؤلاء القوم أنهم قاطعو طريق، نباشون لما في أيادي الناس قريب أو بعيد، يقطعوا الطريق على كل غادي وآتي، لا يملون من النهب، ولا عمل لهم إلا في ذلك، ولذلك كانوا أدنأ من الحيوانات المسعورة التي تنهش أي قطيع، والأنكى من ذلك أنهم يأتون في ناديهم المنكر، فعندما ابتلوا بفعل وارتكاب فاحشة اتيان الرجال، كانوا يفعلون ذلك على استحياء في نواديهم، وكانوا يتوارون، ثم زادت الفاحشة فلم يستحوا من فعالها خارج ناديهم، ولا يبالوا بمن يرى أو يعترض، بل كانوا يتصارعوا في هذا الإتيان، ولتجاهر به بكرة وأصيلاً على الملأ.

كان لوطا علية السلام مطالب بأن يعظ ويهدي هؤلاء الباغين على أنفسهم قبل الغير، مطالب بأن يردهم عن غيهم وإغوائهم بالخيرات، وحثهم على ترك المنكرات وأن يهديهم إلى الصلاح وترك المعاصي، بل وردهم عن كفرهم، وأن يتركوا هواهم وأهوائهم المنبوذة من الرب والعبد ولهوهم وملذاتهم المنكرة، وسلبهم التجار والسرقة وعبادتهم للأصنام، وكان يطوف في كل القرى الخمس، ولا يكف عن دعوته لهم، وكانت دائرته الدعوية على مدار السنين ليس

فيها كلل أو ملل أو انكسار أو شعور بالندم، ظنًا منه أنهم إلى ربهم رادون وراجعون، وأن عليه تكليف من رب العالمين بدعوتهم إلى التوحيد والكف عن المحرمات إلى أن يحكم الله فيهم، ولاقى ما لا يطاق.

إلا انه قد وجدهم في أسوأ حال، فهم كانوا عباد للأصنام، شاربو الخمور ومرتكبو الفجور، بل ومبدعو الزنا الرجال بالرجال والنساء بالنساء، وكذا لم يرحموا الغلمان فدنسوهم بالإتيان، حتى أنهم يأبون أن يكفوا أو يتواروا عن أعمالهم الشنعاء، وما إن أتاهم لوط عليه السلام، وحاول أن يرشد وينصح ويرغب ويرهب ويمني ويهدي ويحبب ويحذرهم ويرهبهم، إلا أنهم جميعا لا يسمعون، وجعلوا أصابعهم في آذانهم من القول الحق، أو النصيحة الواجبة أو حتى يريدون السمع، وكان كل غيهم وهواهم ما يبغون ألا وهو متعتهم واستمتاعهم بكل ما يستطيعون، والغريب غير المستغرب من أهل هذه القرى أنهم كانوا هم الذين يحذرون لوط عليه السلام من أن يرشدهم أو يحرمهم مما كانوا فيه، أو عليه بل كانوا ناهرين زاجرين له، ومحذرين، بل شرعوا في ايذائه بالقول والفعل لأنهم لا يطيقون قول الحق، وكشف خطيئة ما يفعلون بأنفسهم، وأن نصح لوط عليه السلام يزعجهم ويؤرقهم مما يفعلون من محارم وحرمات، وكان عليه السلام يقول لهم – اني لكم من القالين.

وكلما كان يرد على سفاهتهم وأعمالهم المشينة وينهاهم كانوا له ناهرين ومنفرين، وهموا بتهديده أن لم يكف عن نهرهم ووعظهم، فسوف يطردونه من ديارهم. والحق لم ييأس لوط عليه السلام، بل ظل على الدعوة الحنفية وعبادة رب الناس إله الناس، «ولوطًا أتيناه حكما وعلما»، حتى أنهم كانوا يقولون إن لوطًا عليه السلام يبحث عن أجر لما يقول ويفعل، وأن زعماءهم عرضوا على لوط عليه السلام الأجر حتى يكف عما يقول لهم، ويقولون له إن كانت دعوتك هذه بالأجر نعطيك ولكنه عليه السلام كان قد صدَّر دعوته بالأمر بتقوى الله وكان يدعوا: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ»، ثم أخبرهم أنه رسول أمين، وأنه لا يسألهم أجرًا على دعوته لهم إلى الحق المبين، «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ».

الرابع

السيدة سارة

اعتادت السيدة سارة، زوجة نبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أن توفد إلى نبينا لوط عليه السلام قافلة محملة بالزاد والزواد منذ أن هاجر إلى سدوم، وقد حل الموعد من هذا العام، فأمرت بتجهيز القافلة، ولم تجد إلا كبير عبيد إبراهيم أليعاذر الدمشقي للذهاب بها، فما إن قالت له قد القافلة إلى لوط عليه السلام وأبلغه السلام حتى أعد القافلة، وخرج بها إلى الصحراء، وتقدم يقودها، وقد كان الرجل لا يخرج في القوافل، بل كان عمله ينصب في أمور أخرى مكلف بها من قبل نبينا إبراهيم عليه السلام، إلا أنه اضطر إلى ترأس هذه القافلة، وما إن سار بها إلى الصحراء حتى حل عليه تعب ألم بكل جسده، بداية من ركوبة الجمل، فهو لم يعتد الترحال من فترة طويلة، وكان ممتعضًا، بل شديد التأفف من عموم الرحلة، وأصابه وجوم عام ألم به منذ أن أخبرته السيدة سارة بالقيام بها، وهو لا يمكنه رد طلبها، وكان يتمتم في نفسه وهو في الطريق والطقس شديد الحارة والجفاف:

- أتمنى أن ينتهي هذا النهار الحار، ربي يرحمنا برحمته، إنه

يوم شديد القيظ وشمسه قد تعامدت علينا، تأبي ألا تغادرنا لحظة واحدة منذ خروجنا حتى الآن وكان يرفع رأسه إلى السماء من آن لآخر يبحث عن مسحة من سحابة ما هنا أو هناك ويردد قائلا:

- الصحراء لا تنتج إلا الوباء وإن لم نحسن الارتواء والاستخفاء من شمسها الحارقة اللاذعة في هذا الفصل من العام، فنحن جميعًا في شقاء هالكين.

ويزيد من تمتمته لنفسه: «أواه أليعاذر هل هرمت وكبرت» وسرعان ما ينفي عنه ذلك، ويحرك رأسه يمينًا ويسارًا يعني رفضه لما قال عنه أنه كبر، وسرعان ما برر تعبه وسأمه قائلاً:

- ربما لأنني لم أقم بالترحال منذ سنوات طوال، عندما كنت مصاحبًا الخليل في أثناء ترحاله إلى كل ربوع البلاد، وآخرهم الشام، منذ بدايات دعواه لدين الله الحنيف.

ثم عاد بجسده إلى الخلف معتدلاً في مجلسه فوق الجمل، يتذكر ما قاله سيده إبراهيم صلى الله عليه عندما علم بقيادته للقافلة المتجهة إلى لوط عليه السلام ابن أخيه، فقد قال لي: «إن عليّ التمهل لانقشاع الحر وعمودية الشمس هذه الأيام» لكن الحمد لرب العالمين أن الطريق بيننا وسدوم ليست بالطويلة.

وقال لي: لا تذهب إن شئت ألا تذهب، وعندما أفصحت له عن أنها رغبة سيدتي، فقال عليك بإرسال من ينوب عنك في الرحلة، فأنت كبير العبيد والأمر بيدك في إدارة الشئون، ولكني تعللت بأنها إرادة سيدتي سارة، من أن أذهب إلى سيدي لوط عليه السلام، وأوصل إليه ما اعتادت أن ترسل له ولابنتيه في كل عام، ولأني أقدر زوجة نبينا إبراهيم عليه السلام، وأبجلها فلا مانع من أن اوصلها عن طيب خاطر وأريحيه وإن كانت الرحلة على صغرها وقصرها إلى حد ما، إلا أن ما يعكرها هو شمس الصحراء العمودية المتسلطة على القافلة، ربي يهون الصعب ويسهل كل ما هو عسير.

وما إن وصل إلى مشارف قرى سدوم حتى شعر ومن معه بأن الحر قد خف وانكسر القيظ، وسرت في الجميع حالة من الانتعاش مفعمة بنسمة هواء عابرة، شعر بها كل من بالقافلة، كلما اقترب وصول القافلة إلى القرية

وقد نادى أليعاذر تابعه ليأمره بأن يرسل رسولاً يستطلع مكانًا ينزل فيه القافلة قبل دخولها إلى القرية لترتاح الجمال، ومن معها، إلى حين الوصول لبيت لوط على السلام، وما هي لحظات حتى فوجئ بسماع أصوات وصراخات عالية وعفارة من الرمال تهب على القافلة، وكانوا عبارة عن رهط من الرجال يبدو أنهم من اللصوص، وما إن اقتربوا

منهم محاولين الهجوم حتى اتضح أن طريقتهم تختلف عن لصوص الطريق الآخرين، فقد ظهروا وكأن داءً أصاب عقولهم، وكان أحدهم يجلدهم أو يرمي عليهم بحجارة، فكل قفزاتهم وصياحهم يدل على ذلك، وكانوا سريعي الحركة وأزار ملابسهم محلولة، وعمامتهم مختلفة لصغرها على رؤوسهم، فكانوا يثبتونها من آن لآخر خشية انفلاتها منهم، وما إن رفعوا أيديهم وتعرت اكتافهم حتى تبين أنها ملونه بالحنة، وهو أمر غير متعارف عليه عند العرب في هذا الوقت، وقد أصابتنا الحيرة من أمرهم أهم حقًا لصوص طريق، فما يفعلونه ليست من أفعال أو شيم قطاع الطريق أو اللصوص المعتادين وغير معتاد كون لصوص الطريق من أعمالهم وأشكالهم فهم غلاظ شداد لا يهابون أحد، وكل همهم أن يسلبوا وينهبوا، ويفعلون ما يملكونه لنيل وليمتهم حتى ولو قتل بعضهم البعض، لكن هؤلاء المهاجمون فهم رجال غير أسوياء شكلاً وموضوعًا.

وما إن هجموا وغيهم أن يستوقفوا حتى أمر أليعاذر الرجال بالتوقف، ونزل إليهم لاستبيان ما بهم، ولشدة استغرابه وعدم تصديقه أنهم لصوص قاطعو طريق، وظن وهو مرتاب من كونهم ربما يحتاجون عونه، أو حل عليهم أمر نال منهم، وأتعبهم أو أصابهم صائب ما، وما إن نزل من ركابه وتوجه إليهم وألقى السلام، فلم يجبه أحد، فانقبض

وبغض منهم، وما هي ثوان معدودة حتى قفزوا على الناقة يريدون انزالها، وآخر منهم شاء أن يحل وثاقها، وشرع يجرها، وشاءوا ان يسرقوا كل متاع القافلة، فتصدروا لهم ومنعوهم، وتشابكوا معهم، وأحدثوا فيهم إصابات، وتجمع على القافلة أناس مثلهم وعلي شاكلتهم وصاحوا صياح لا يصدر من رجال أسوياء، أصوات مخنثة لا معنى لها إلا أنها نواح أو صراخ نساء، ولك أن تقول ما تشاء، وتجمع الجمع وفيهم أليعاذر يطالبهم بالذهاب إلى ولي أمرهم أو إلى قاضيهم لمقاضاتهم عما كانوا يفعلون.

الخامس

في ديوان القاضي

ذهبوا إلى حيث مقر قاضي قضاتهم، وكان رجلاً على شاكلتهم، لا يرى عيوبهم، ويحلل لهم المحارم، وينصر الغني ويقهر الضعفاء، وينال منهم، وما إن دخل عليهم حتى وجده أليعاذر لا يختلف عنهم، فملبسه غير متزن، حلل الإزار، ومهرول الزى، مائل العمامة يلتفت هنا وهناك، وما إن جلس حتى كاد أن يقع فقد عدل مقعدة، وسرعان ما قام وكأن عقربًا لدغه ويسوي المقعد ثانية، وما إن استقر عليها حتى عدّل عمامته، واحتسى الماء، ووشوش حاجبه المائل إليه، وهو يبتسم ابتسامة بها ونادى الحاجب ويا ليته ما فعل، فصوته ناعم ولا يفهم من قوله أي اسم، ومثل الجميع أمامه، وشرع يسأل أليعاذر وقومه عمن يكونون، ومن أي بلاد، وعندما علم من هو ومن سيده، شاء أن يتركهم ليعاقبهم بعقوبة التجهيل والانتظار.

يقول أليعاذر: «حتى مللت وأخذ الحنق مني منالاً كبيرًا، وخشيت من المزيد من الضجر فقمت أسير خارج هذا الديوان لكي أتمالك نفسي، فتجولت في المكان حتى وجدت في ركن ما أركان الديوان رجلاً ليس بالهرم، منحني الظهر

رث الثياب، يبدو عليه أنه مهموم، وحاله هذا دفعني إلى أن أكون بجواره، ولكني ترددت في الاقتراب، وغيرت اتجاهي إلى جهة أخرى ووجدتني التفت إليه مره ثانية، بل وبجواره وحالي يقول فليكن ونيسًا وجليسًا لي من ويل الانتظار والترقب، كما قررت أن أسأله عن كافة الأمور التي أراها عله يأتيني بإجابة شافية تريحني وتهدئ من روعي، هل يا ترى عوقب منهم أو عوقب من قاضيهم، وأظن أنه لم ينل حظًا من المحاكمة، وسرعان ما سرحت فيمن قابلتهم من هؤلاء اللصوص، وتساءلت من هم؟ وما أحوالهم وحالهم؟ فقد فزعت وأصبح بالي مشغولاً، وسرعان ما أفقت من سرحي حال ان وجدت الرجل يقف ويسير مترجلاً، فتوجهت إليه لأسال عله يجيبني وقد تيقنت أنه ليس من أهل هذه القرى، ووضح ذلك من ملبسه وعمامته ووقاره البادي عليه، رغم كونه رثًا كما يبدو على هيئته، إنه قد تعرض للضرب، ويبدو ذلك جليا من نقاط الدم التي على رقبته وملابسه وحزنه البادي عليه، وإمساكه بعصا غليظة بيده قابض عليها وكأن أحدًا يرغب في الاستيلاء عليها، فتوكلت على الله لسؤاله ولكن في أثناء ذلك انتابني تردد ألم بي بل وقد تزاحمت الأسئلة التي أجهزها للرجل، وكم كنت شغوفًا بل ومتلهفًا لمعرفة أحوال هؤلاء الرجال اللصوص الذين خرجوا على قافلتنا، وما هو حالهم، هذه المهاترة المتهتكة وطغيانهم

وجرأتهم في السرقة وعلو أصواتهم وخلاعة ملابسهم، وفقدان وقارهم كرجال، وتجاوز أهلها عن العرف والعادات العربية، وما إن اقتربت منه حتى ارتعش وزاد من قبضته على العصا وكاد أن يرفعها في وجهي حتى ابتسمت له والقيت عليه سلام وقلت له إنني مثلك فهدأ.

وقلت له ما جري لي ولقافلتي كان مستمع لي ومنتبه، وما إن عشمته بالعطاء على أن يقص على أمر هؤلاء القوم، وما يفعلون، ولماذا هم كذلك وهل سمعت عن نبي فيهم يدعى لوطًا عليه السلام، وما كان من الرجل أنه اعتدل وخفف من قبضة على العصى والتفت إلى يقص على نبأ هؤلاء القوم يقول:

إن أهل هذه القرية ومن حولها من القوم المفسدين اللصوص القتلة، الذين لا يستحون أبدا فهم، يا سيدي يأتون الرجال، ويقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ،وإنهم استحبوا إتيان الرجال بعضهم بعضا، وانصرافهم عن النساء، وما إن سمعت الرجل حتى شعرت بدوار، ولم أصدق قول الرجل، وقلت لنفسي لأنهم ضربوه وسلبوا ماله، ولم يجد من ينصف ويرد له عطاياه، فقلت للرجل وأنا أتحداه: أتكذب أيها الرجل لتنال ما وعدتك من عطايا، إن هذه القرية بها النبي لوط عليه السلام، ابن شقيق نبينا إبراهيم عليه السلام، وهم

ممن أتاهم الله النبوة، وكان معه في نشر الدين الحنيف، كيف تكون كذلك. والله لأن لم تصدقني القول لأدعك دون إعطاءك عطيتك التي وعدتك بها، ولم يتغير وجه الرجل وصرف وجهه عني وبدا حزينًا، ورفع عصاه إلى أعلى وأسفل على الأرض وكأني لست بجواره، وما إن هدأت وسكنت وأدركت أن الرجل يقول ما يعرف، وربما شاهد ما يقول وضعت يدي على كتفه، وخفضت نبرة صوتي قليلاً، وقلت له: أتعلم عن دعوة نبي الله لوط عليه السلام؟ أولم تؤمن بما أتى به؟ ألم تحط علمًا أم أنك من بلاد بعيدة؟ أخي أصدقني القول، أحقًا ما تقول؟ وانتظرت الإجابة والتفت إلى رافعًا رأسه قائلاً: ما قلته هو القليل ولسوف ترى وتسمع ما هو أسوأ منه، فلا ترهقني، ولا تزد من أمري همًا، ولا أريد عطايا منك، ودعني لقد بلغت مني أمرًا.

وتركت الرجل ساهما مشغول البال مفتوح الفم، أحدث نفسي ضاربًا كفًا بكف، وسرت لا أدري أهذا هو الطريق أسير فيه؟ أم انتظر في ساحة القاضي أو ماذا أفعل؟ جلست في أقرب مكان دون هدى مني، حتى أهدأ واستغفر، وما هي إلا بعض دقائق حتى أقبل على الرجل يجاورني، ويقول لي أعلم أنك غريب عن القرية، وما حل بها، إلا أننا كتجار نعلم ما بهؤلاء من غرابة، ومن لم يحالفه الحظ ويجد من يحذره يمر من هذه القرى، ويجد ما لا يسره، وما إن التفتت

إليه أسأله عن نبي الله لوط عليه السلام وما يدعو به، قال الرجل: سمعنا ان فيهم نبي لا يملك من الأمر شيئًا، ولا أحد يؤمن بدعوته وهم على حالهم مستمرين، بل هو يخشاهم كما الغريب، ولولا أنهم يعلمون قدر أهله لهلك، بل سمعت أنهم يتحدوه إن كان يملك أن يعذبهم، والأمر على ما قلته لك، فلن تنال عدلاً أو إنصافا سواء كان من القاضي أو من أي فرد فيهم، هؤلاء القوم حطموا الناموس الطبيعي، فلا حاكم لهم ولا رادع يردعهم، ولا نبي يؤمنوا به، فدع ما يخف عنك أذاهم، واترك لهم ما طمعوا فيه، وإلا ستنال منالاً أسود أغبر من ذلك، وقلت هل هناك أسوأ؟

فقال الرجل نعم، أن يأتوا لكي ينالوا منك، وممن معك، فهم يأتون الرجال ويفعلوا بهم فعل النساء، فارحم حالك وسلم إليهم مالك تسلم. وهدأ الحوار بيننا فترة من الوقت، فعدت إليه مدققًا في وجهه لأدرك مدي صدقه

وسألته عن كيف أصيبوا بهذا الداء، وكيف انتشر فيهم، وما يعبدون، صمت الرجل حتى نال مني صمته غيظًا، وأعدت عليه السؤال فقال دونما أن ينظر إلى وجهي:

إنه في يوم من أيامهم الغابرة، وهم يسلبون ويسرقون ويعتدون على خلق الله من الانس، سواء أهلهم أو غريب عابر أو مار يمر بتجارة، أو ضال في الطريق، وفي أحد

أيامهم أغاروا على تاجر قادم بقافلة صغيرة مثل قافلتك وكان قادم إلى قري سدوم وعمورة، مارًا بالقرى المجاورة، وكما قلت لك إن هؤلاء الناس تحيا لتأكل وتستحل ولا تعمل، تتصيد الطعام من غير كد، لا شاغل لهم إلا كيف يسلبون منك مالك، أو يدعي عليك ببلاء ما، ثم يتحول هذا البلاء إلى حق مكتسب له يطالبك بأدائه، أو ينال منك كما يشاء وهم في الحقيقة غلاظ القلوب، واقتصرت دنياهم سواء من النساء أو الرجال على عمل الشرور، وكفاحهم على النهب والسلب لكل من يأتي إلى أي من قراهم من التجار العابرين، أو حتى الذين يمرون غرباء، أو حتى الأقرباء منهم وفيهم، فهم من يسرقون وينهبون ويقتلون أيضًا، وأقل أعمالهم هو البلاء على الجميع، وفي إحدى ادعاءاتهم على الناس الغرباء أو الضعفاء وقعت واقعة اعتداء على نفر من الغرباء، كان يمر ببضاعته، حتى قام رجال منهم واستوقفوه وحاولوا أن ينالوا ما معه، وزادوه ضربًا بالحجارة، بل وحاولوا أن يجردوه من ملابسه، إلا ان الرجل نال منهم منالاً كبيرًا، وما إن انتهى منهم، وقبل أن يغادرهم أراد أن يذلهم جزاء على أعمالهم معه، فتصيدهم وفي الحق كان شديد الحنق عليهم، بل والغل أيضًا، حتى انه قرر أن يتصيد كل واحد منهم على حده، وكمن لهم في مكمن بالقرية، وبالفعل قيد أحدهم برباط وجرده من ملابسه، ونزل عليه بالضرب، إلا ان الرجل

التاجر لم يرتح أو يشفى غليله، فقرر أن يفعل فيه فعال النساء، ليقضي على ما تبقي منه كرجل، وبالفعل تناوب على الرجل يضاجعه مرات، وكلما مل توقف وتبعها مرات، حتى كره نفسه، وما فعل فقرر أن يدعه قرفًا منه، ومما فعل، إلا أن الرجل المفعول به أبى ذلك، وأسرع ليمسكه بل ويتعلق به طالب دوام الاعتداء عليه جنسيا، فتعجب الرجل وتركه لحال سبيله خوفًا من أن ينكل به، وينتقم منه وما ان عاد المفعول به إلى بيته حتى تغير حاله، وقص على من يجاوره ما جرى له، وأن الأمر قد اعجبه بل وارتاح له، وهنا بدأت اللعنة بل وانتشرت، وكان منهم من انتشى، ونشر ما ابتلي به، وذاع الداء، واشتعل وعاونهم الشيطان أحسن تعاون، وكان الداء كالنار الهائجة في اليابسة لم تترك رجل إلا وأصابته، وأحرقت أهل القرى كلهم وبدأ فعالهم في نواديهم، ثم جهروا بها غير عابئين بالآخرين، أو أن ينالهم اللوم أو العتاب، فكان أغلبهم مبتلى بالإتيان اللعين، تاركين النساء تفعل فعالهم أيضًا، وكانت فيهم المساحقة، وأدرك الرجل عدم فهمي لقوله عن النساء، فقال لي وهو يخفض صوته استحياء «دك فرج الأنثى بفرج الأنثى بدافع الاستمتاع الجنسي السحاق، وكان هذا فعل هؤلاء النساء بعدما استغنى الرجل بالرجل، ففعلن مثلهم كما أن غلمانهم نالت نصيبًا من لعنتهم، فكان إتيانهم مستباحًا، وأصبح الداء وباء منتشرًا ومنهمرًا ولا حاكم له،

بل هم محكومون به، وكلما استفحل فيهم كلوا وملوا فكانوا يبحثون عن كسر الملل بمزيد من الرجس والفحش».

وما إن صمت الرجل وزاح وجهه عني عندما وجد وجهي وقد تعرق، وكان وجهي الأسود تفحم أكثر، وأصابتني ارتعاشة، فهلعت مما سمعت وكرهتهم أشد ما يكون، واستغفرت رب العالمين، وألم بي الهم والغم، ولم أملك من نفسي إلا البكاء والاستغفار، وكيف يكون حال نبينا إبراهيم، ما إن يسمع هذا المنكر.

سادسا

إبراهيم عليه السلام

«وبكر إبراهيم في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الرب، وتطلع نحو سدوم وعمورة، ونحو كل أرض الدائرة، ونظر وإذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون، حدث لما أخرب الله المدن الدائرة أن الله ذكر إبراهيم، وأرسل لوطًا من وسط الانقلاب، حين قلب المدن التي سكن فيها لوط» ..
الإصحاح التاسع عشر

ما إن لاح الصباح، وشرعت السماء في الاستيقاظ، وأرسلت أشعة من نور تشهد ببداية يوم جديد، وقبل أن تفرد الشمس وجودها، هلت نسمات من الهواء العليل مصحوبة بعزف جميل من مخلوقات المولى من الطيور المغردة المسبحة حامدة شاكرة على يومها الجديد، وما إن مُلئت الأرض بنور ربها الساطع الذي يمحي ما دونه، حتى كانت النجوم تقاوم نور السماء، لا ترغب في أن تختفي أو أن تنزوي رغم سطوع الشمس، إلا بعد أن يخرج الخليل إبراهيم عليه السلام إلى الساحة وبعدها تختفي.

وبخروج إبراهيم الخليل من بيته تكون بداية اليوم، وكذا بداية الحياة وزيادة في الإشراق، فعندما تبدأ تراتيل الحمد

والشكر من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام -إن إبراهيم لحليم- الذي أضاف رونقًا جميلاً على الصباح، بل أنعش الأجواء بنسائم هوائية رقراقة تمس الوجوه، فقد اعتاد أن يصلي ويسبح فهو -أواه منيب- وكان مصلاه في مكان قصي عال على ربوة يرى منها الكثير من الأماكن البعيدة، بل ويمكن أن يري ويرصد أغلب القرى المجاورة له، وكانت أقربها هي قرى سدوم وعمورة.

وما إن تطلع ينظر يمينًا حتى وجد دخانًا كثيفًا يظهر في المدى، وشعر بشيء أقلقه، فانشغل قلبه وتوجس خيفة، وسرعان ما استعاذ من وسوسة الشيطان، واستعان برب الناس، فارتاح قليلاً وعاد يفكر، ولم يهدأ، فقد تذكر ضيفاه اللذان كانوا في ضيافته من الأمس، وما قالا، وهما ملاكان شديدان، لا يعصيان أمر الله، «قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ»، ارتعب إبراهيم من قولهم، وقال لهم إن فيها لوطاً فكان جوابهم نحن أعلم بمن فيها، فأرتجف أكثر وأصابه الروع، ونال منه قولهم هذا، فقيل له يا إبراهيم أعرض عن هذا، وما شاهدوه هكذا قلق، قالوا له إنه قد جاء أمر ربك إلا أن إبراهيم الحليم أشفق على من في القرى من عذاب واقع، وقد أخذته الرأفة بهم لأنه يأمل في تأجيل الانتقام من هؤلاء القوم عسى أن يهتدوا في يوم من الأيام، ولأنه كثير التأوه من الذنوب والأسف على الناس

فراح يجادلهم مرة أخرى، وقال إن فيها لوطًا فقالوا له يا إبراهيم أعرض عن هذا، إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود.

ولأن قلبه معلق ومنشغل بلوط وابنتيه، إلا أنه سكن وسكت واطمئن لوعد الله بنجاة ابن أخيه لوط عليه السلام وأهله، «لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ».

وسرعان ما كانت تعلو وجهه ابتسامة، تملأه بشاشة عندما يتذكر البشارة الإلهية من الملائكة نفسهم عندما جاءوه وبشروه بغلام، ولما جاءت رُسلنا إبراهيم بالبشرى، وبعدها تضرع إبراهيم إلى الله شاكرًا حامدًا عما أعطاه ومنحه رب العباد.

وما إن علت سحائب الدخان في عنان السماء، حتى توجه بوجهه مرة أخرى ناحية الدخان الصاعد من هناك، وما إن دقق البصر حتى تيقن من تنفيذ وعد الله بهلاك قوم لوط.

«قالوا إنا مُهلكوا أهل هذه القرية».

فهو الآن يعرف مصدر هذا الدخان جيدًا، وتأكد أنها صادرة من قرى السهل الخمس.

سابعا

ولا يلتفت منكم أحد

- ولا يلتفت منك أحد، وفي سفر التكوين لا تنظر إلى ورائك **(تك 17 – 19)**

وفي عتمة الليل خرج لوط عليه السلام وابنتاه متبع تابع، ومنفذًا لأمر الله، «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ»، وما إن بدأوا في سيرهم وقت السحر حتى لاقوا الصعوبات الجمة، سواء بداية من عثرات الطريق ووعورته، وما كان يحدث فيه، فكانت المخاطر كثيرة، وكانت هناك أيضا وسوسة الشيطان والجن، وأذنابهم من الإنس، والتي لا تقف أو تكف أبدًا عن أفعالها، أو تمل أو تكل، ولولا أن لوطا عليه السلام كان حريص على تنفيذ ما أمر به الله، لأصيب، ولكن الله شاء له النجاة، وشدد عليه ألا يلتفت منكم أحد، وسار بابنتيه على أن يكون هو في مؤخرتهما يتفقدهما، ولا يدع أحدا منهما يتخلف أو يتلكأ، أو يتلفت إلى الديار، فقد كانت العادة في هذا الوقت أن من يهاجر ويترك داره فعليه أن يلتفت كلما سار على عادة المهاجرين الذين بتنازعهم الشوق إلى ما خلفوا من ديارهم، فيتلفتون إليها ويتلكأون في أن ينظروا

إلى الخلف، خاصة أنه ترك القرية، ولن يعود إليها، وأكثر ما يخشاه أن يلتفت إلى القرية، لا لشيء ولكن لأنها العادات، ولأنه إن فعل لوط عليه السلام ذلك، أو ابنتيه، فلن يجد خيرًا، ويكون مخالفًا لما أمر الله، ولأنه نبي تعلم من إبراهيم عليه السلام الحلم وحب الطاعة، وإتباع أوامر رب العالمين، فقد حرص على أن ينفذ ما أمر به الله.

وسار لوط عليه السلام وابنتيه، وظلوا سائرين في الدروب والطرقات منفذين ما أمرهم ربهم - وأن يتبع إدبارهم ولا يلتفتوا - ترعاهم مشيئة صاحب المشيئة.

وما إن وصلوا مشارف قرية تدعي صواغر، ومن الناس من يقول عنها صواغر، أي الصغيرة، وهى تسمى أرض الغور، وتعرف غور زغر مدينة سدوم، ويطلق عليها سرمين، وهي من مدن السهل الخمس، وتبعد عن عمورة وقريبة من حبرون، وقد كان يقيم فيها خليل الله إبراهيم عليه السلام والمسافة لا تتعدى بضعة كيلو مترات.

«وَإِذْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صُوغَرَ» **(تك 19: 23).**

وما إن أشرقت شمس الصباح بنور ربها مسبحة بحمده تمجده، ومع النور تحمل وتنشر دفئها إلى كل ما تصل إليه، حتى تملأ كل ربوع الأرض، ومع الشروق تبدأ الحياة ويسعى

كل فيما سطر له من رب العالمين، ولقد لزم لوط عليه السلام الطاعة، حتى كان ممن دخلوا في رحمة الله وبركاته، ومن الصالحين، وما إن أمر بالخروج حتى أطاع وانصاع واتبع أوامر الله حتى كان من الناجين، أن يسير بأهله بقطع من الليل، وقد كان الموعد هو الصبح والصبح قريب.

وكان لوط نبي الله وابنتاه ممن استشعروا بمداد أشعتها إليهم، وهم يتمتموا بالتسبيح وبالحمد لربهم على ما هم فيه، وعليه فثلاثتهم معا، ابنتاه ريثا وزغرتا كانتا تسيران أمامه خطوة بخطوة يستقويان به ويستشعران الأمان والاطمئنان بقربه، واحتوائه لهما، إلا أنهما أرادا مزيدًا من الدفء، فتمهلا في سيرهما لأجل أن يلحق بهما أبوهما حتى استويا يسيران معًا، وشعرا بمزيد من المدد والتقرب، وكانت إحداهما قد انتقلت على يمين لوط والأخرى عن يسراه، وما إن اقتربتا حتى احتواهما بكلتا يديه مع ابتسامة جميلة من ثغره، فغمرتهما براحة كبيرة وعلت أصواتهما متناغمة حانية بالحمد والشكر والتكبير لربهما الذي نجاهما من القوم الظالمين، «وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ».

ثامنا

قرية صواغر

وما إن أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط صواغر، حال وصول لوط إلى القرية، اعتدل واقفصا، ثم رفع رأسه التي كانت منكسة على الأرض يتطلع إلى السماء متمتمًا بآيات الحمد والشكر على ما هو فيه وأهله، ثم دار برأسه يستطلع ما حوله، وهو قلق بل ومتوجس خيفة، يلتفت في كل الاتجاهات، وما إن امتد ببصره ودقق حتى رأى ربوع القرية ودقق النظر ليرى الجبال المحيطة، وشغله الشاغل البحث عن مكان يؤويه، ويبعده وأهله من المتربصين لهم، فقد كان يخشى أن يتتبعه أحد من القرية الظالم أهلها.

وسرعان ما المت به قشعريرة مسته حتى اهتزت أوصاله، وأحس بثقل في بدنه أخمله، بل ووجد بعض الصعوبة في السير، حتى اعتدل مقاومًا هذا الشعور بالثقل والخمول، كما أنه خشي أن تلاحظ ابنتاه تعبه أو ينتابهما الشك في أنه أصابه وهن، فأرسل اليهما إيماءة تطمئنهما، وتلتها ابتسامة ملأت وجهه الصبوح، وردًا عليه بمثلها، واستكمل سيره باحثًا عن مكان يؤويهم، وأشار إليهما على مكان قصي وكان جبل يطل على القرية وساروا معا يعلوهم ابتسامة غير مكتملة،

لكن وجوههم بدت عليها الراحة، وكانوا لا يملون من الحمد لله الواحد الأحد مرددين «نجانا العلى القدير من القوم الظالمين».

وواصلوا سيرهم إلى الجبل، حتى وجد لوط عليه السلام مغارة تشرف على القرية، فمكثوا فيها، وأول ما فعلوا أن بسطوا أرجلهم، وهم يتلمسوها ضاغطين على كل جزء فيها بأيديهم تعبيرًا عن التعب الذي لحق بسيقانهم التي كلت من السير منذ الليل حتى الآن، وما إن مرت لحظات حتى قام لوط عليه السلام واقفًا ينظر في كل الاتجاهات المؤدية للمغارة، وذلك من فتحة المغارة التي تطل على القرية.

تاسعًا

لوط في المغارة

وما إن اطمئن وسكن الطمأنينة، وجلس بين ابنتيه يتذكروا أحداث ما جرى لهم، وهول ما حدث بالقرية، ووقفت ريثا فجأة أمام أبيها وهو على جلوس رافعا رأسه ناظرا إليها، وينتظر إلى ما سوف تقول.

- ترى يا أبى ماذا جرى لقريتي سدوم والقرى التي حولها وماذا حدث لها؟ «إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ»، «وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ».

وما كان منه إلا أن أخفض رأسه وقد تغيرت ملامحه، وبدت عليه علامات الحزن، ولم يجبها، بل أشاح بوجه إلى فضاء السماء من خلال فتحة المغارة، وكان هائمًا سارحًا فيما ما مر عليه من الأحداث، وفى كل ما كان وما سوف يكون، بل إنه شطح به عقله إلى بداية تركه لعمه إبراهيم عليه السلام، عندما أذن له ربه بالرحيل مهاجرا إلى أرض الله، يريد نشر دعوه التوحيد وهداية الناس إلى الدين الحنيف، وهو عمل فضيل عظيم، وأجل من المكوث في وطنه، خاصة مع وجود العم على رأس الدعوة الدينية

الحنفية، وتذكر عندما ذهب إلى المدن الخمس بداية من سدوم الكبرى وسرمين في بلاد الشام وعمورة في الأردن، والمعروفة بغور زغر، وهذه القرى كافرة لا تعبد الله، وعبادتها الأصنام وهو سبيلهم وعمل المنكرات هو حياتهم، والفاحشة حالهم وعملهم، وتبع ذلك السرقة والنهب والسلب، وكان أمرهم موجع ومفجع لمن لا يعلم.

وما أن طال شروده حتى أنه لم يشعر باستلقائه للخلف متمددًا على ظهره، غير عابئ بما تحته، خاصة أن ارض المغارة غير مهيأة للاستلقاء عليها، إلا أنه ظل مستغرقًا في تذكر أحداث ما قد سلف، وما إن استقام ظهره حتى علت تمتمة شفتيه، ولم يدم الأمر كثيرًا وسرعان ما اعتدل جالسًا قائلاً بصوت مسموع: «كم تمنيت أن يسمعوا ويستجيبوا لدعوتي إليهم، ويستمتعوا بعبادة الواحد الأحد، بل وبحلاوة الإيمان وجلال الخشوع والخنوع لله، حتى ينجوا مما حاق بهم، إلا أنهم عموا وصموا وتغلظت القلوب التي في الصدور بل كانوا يقولوا «ائتنا بعذاب الله إن كُنت من الصادِقين».

وهب واقفا يقول وهو يسير تجاه فتحه المغارة، وقد بدا عليه الحزن يردد قائلاً:

- لقد أقمت فيهم سنوات، وتزوجت من نسائهم، وتعلمت لغتهم، إلا أنهم لم يستجيبوا لي ولم يسمعوا رسالتي، فقد

كانوا صم بكم عمي لا يسمعون، أو يودون الفهم، واستحلوا كل ما هو حرام، وجل همهم ملذاتهم، وكانوا لها عاكفين، ولأصنامهم مصلين، وزادوا في أنهم كانوا يسرقون وينهبون، ويفعلون المنكرات، كأنها حلال مستباح لهم بل يبالغون فيها، وكيف لهم أن يتركوا ما حلل الله لهم من النساء ويفعلون في أنفسهم المنكر، ووجدوا في الرجال شهوتهم من دون النساء، وهجروا النساء ففعلن النساء مثلهن وانتشر السحاق بينهن، وأصبح وباء لا علاج له، بل زادوا في غيهم حتى جهروا بها وكم ناديت فيهم، وحذرتهم من مغبة أفعالهم المنكرة، والمكروهة والنكراء، وقلت فيهم إنكم خالفت ناموس الدنيا التي خلقها الله، وأنكم أول من تفعلوا زنا الرجال.

«وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ» وبين ظهرانيكم نساؤكم، وهن حل لكم، وأنتم حل لهن، وظل يردد الاستغفار وطلب التوبة والمغفرة، ولم تسطع أي من ابنتيه أن توقفه عما هو فيه خشية عليه، واستمر حاله هكذا حتى التفت إليهما يقول:

- الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، فقد دعوت ربي أن ينجينا من هؤلاء القوم فقد زادوا في غيهم غير عابئين بما يفعلوا، فهم يبدلون ناموس الدنيا، ولا يتورعون أبدًا عن المداومة على المنكر، فقد أشاعوا وباءهم، واستحلوا الحرام،

حتى نساؤهم لم تعد حل لهم فقد استغنوا رجالهم ببعضهم البعض، حتى أن نساءهم فعلن ما كانوا يفعلون، ووجدن أنهن مكتفيات ببعضهن مساحقات لبعضهن البعض، وكنت أردد دعواتي إلى ربي أن ينصرني عليهم.

«قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ».

وسرعان ما حل الصمت التام، ولا يسمع إلا أصوات أنفاسهم حتى بادرت ابنتاه ترددان: «الحمد لله رب العالمين على ما نحن فيه، فقد نجانا الله فلا تبتئس أو تحزن يا أبي».

وقال لوط عليه السلام: «الحمد الله: وعلا صوت ابنته الأخرى تقول وهي شاردة وكأنها تحدث نفسها:

- ترى ماذا حل بأمنا والهة، وهل حل بها ما قد حل على أهلها الفاسقين؟ وكانت ممن هلكوا أم ماذا صارت إليه الأمور؟ وكيف وصل بهم الحال؟ فقد رأيتها ترغب في رفقتنا وظننت أنها سوف تسير وتتبع أمر الله، ولا تلتفت كما أمرنا الله، إلا أنها خالفت كعادتها ونظرت فكانت هالكة كأهل القرى، أم أنه ظن أو تخيل مني، إم أني أبحث لها عن مخرج لما فعلت؟

ورفعت رأسها عاليًا، ثم حولت وجهها عن أبيها، وقد مُلئت عينيها بالدموع، وما إن رآها لوط عليه السلام حتى جلس

بجوارها، ووضع يده على كتفها يضمها قائلاً:

- لا تبتئسا ولا تقنطا من روح الله، فالله هو القادر والمقتدر وإن لكل منا حمله الذي ارتضاه، وأمك حملت وزر ما ارتضه لنفسها، وأبت الحق وحادت عنه، وكانت من الغابرين، أي فضلت وارتضت أن تظل مع قومها في الإثم، وقد قال ربي إنه مصيبها من العذاب ما أصابهم، وفي المكان الذي سوف يقع فيه العذاب، ولقد لاقت جزاء ما تخيرته والله أعلم ما هي عليه الآن.

عاشرًا

مازال لوط علية السلام في المغارة

ويمر الوقت على لوط وابنتيه، وتلح عليهم احتياجاتهم البشرية، من مأكل ومشرب، ودوام الحال يتطلب أن تُلهي بأمور الدنيا، وهذا ما كان معهم، فطلبات الدنيا ألهتهم قليلاً حتى إن فرغوا منها فجلسوا يتذكرون ما هم عليه.

وشرع لوط محدثا ابنتيه:

- وتعلمان أن أهل هذه القرى بغوا وتكبروا وفعلوا الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، وأن أعمالهم لم يؤتى بمثلها في العالمين، وزاد فجورهم بإعلانهم الفجور والجور على الجميع، وجهرهم فاق الحد والتصور، ولم تفلح معهم دعوتنا إلى الحق، وهي عبادة الواحد الأحد وترك المنكرات وإصلاح ذات البين، إلا أنهم كانوا يجترئون عليّ وكادوا يقتلونني، ولولا عناية الله لكنت من الهالكين، وتعلمان أنني ما أتيت إلى هذه القرى إلا لدعوتهم لعبادة الله الواحد الأحد كأبينا إبراهيم عليه السلام، وما هبطت إلى سدوم وعمورة وبقية القرى إلا وكنت فيهم ناصحًا ومرشدًا لهم، وهم على علم، ويعلمون نسبنا، وآلنا من الرسل والنبيين، ومدى صدق دعوانا إليهم، وهم على علم بدعوة أبينا ونبينا إبراهيم».

وهزت ابنتاه رأسيهما تصديقًا لقوله وإيمانًا منهما بما يقول، واستمر يتحدث:

- ومع ذلك لم افتأ عن الدعوة بالتوحيد، وترك المعصية وعبادة الله الواحد الأحد، إلا أنهم أصموا وعميت أبصارهم وكانوا عن دعوتنا لاهيين غير عابئين، ولا ينظروا إلا إلى الفواحش والغلو بها، ولا يندمون على ما يفعلون أو حتى ما قد سلف. فقد قالوا لي وأنا فيهم ناصح أن يستحلوا نساءهم، ففي ذلك عفاف لهم ولنسائهم، فكان جوابهم لي لقد علمت يا لوط أن لا أرب لنا في نسائنا، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا، وكان الضيوف عندنا في البيت وشرعت أنصح فيهم، وأقول إن النساء حرث لكم فأتوهم أنَّا شئتم، فهن حل لكم، وانتم كذلك، وإنهن مصدر للإنجاب وعمارة الأرض، أي مصدر للحياة، فكيف بكم تمنعوا وتوقفوا ما خلقتم لأدائه ألا وهو إنجاب البنين والبنات، النشء القادم، وتغفلونه، فقالوا لي وقتئذ لا طاقة لنا بما تقوى، فخل عنا ودعنا مما نحن عليه، وانتم افعلوا الطهر الذي تريدون، فلقد علمنا أنكم أناس تتطهرون، فلا طائل لنا فيما تنصح، ونحن نرغب فيما نريد. وعندما ناديت فيهم إنني نذير مبين، اتقوا يومًا لن تملكوا شفاعة أو شفيع، واتقوا الله وأطيعوني، واتقوا ما يحل لكم اليوم أو غدا، فأجابوني إذا كان الغد كان لنا وله شأن.

«إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ».

وما إن صمت يلتقط أنفاسه حتى قالت ريثا: يا أبي لمَ صمدت مع هؤلاء القوم طيلة هذه السنوات؟ ولم تتوان أو تمل، بل أنت أقمت فيهم وتعلمت لغتهم وتزوجت منهم، فكيف بك تصمد هكذا أم هو أمر الله؟ وأجابت على سؤالها تقول:

- علمنا من أنهم قوم فاسقون، بل جبارون، وكل أعمالهم منكرة ليس فيها خير، بل تاريخهم مليء بالمنكرات، وكم اتمنى أن ينالوا ما يستحقون، ولكنك صمدت وكافحت وناديت في كل القرى علَّ أحدًا يرتد عما هو فيه، وصبرك هذا هو هبة من الله، ألم تشعر بيأس أو قلت لنفسك كفى ما أناله منهم، واعذرني يا أبي في قولي، أوقن أن الله كان سندًا لك، يمنحك الصبر والقوة على أداء الرسالة، وكم كنت أرى بشاشتك برغم من أنهم لا يسمعون، وفي قلوبهم وقر الصمم والبكم فهم لا يشعرون، وأدركت عظمة ربنا تبارك وتعالى معك، وأنت تدعو، فعذرًا يا أبي على السؤال.

وقالت بعدها نعم يا أبي، ألا تذكر يا أبى ماذا فعلوا مع أليعاذر الدمشقي كبير عبيد أبينا إبراهيم عليه السلام، عندما أرسلته السيدة سارة إلينا؟

الحادي عاشر

أليعاذر

وتوارى أليعاذر عن الأنظار منزويًا متقوقعًا خلف إحدى النوق، شارد الذهن، منشغلاً بما شاهد وسمع عن أهل هذه القرية، وكان من وقت لآخر يضرب بكفيه مستغربًا متعجبًا من أمرهم، حزينًا على وجود لوط عليه السلام وسط هؤلاء القوم المنحرفين عن الصواب، المخالفين لناموس الطبيعة الربانية، وما إن شعر بثقل في رأسه، ورغبة عارمة في السير ليتناسى ما شاهد ويشغل نفسه، فقرر أن يخرج ليستكشف أكثر عن أحوال هؤلاء الغابرين، فقال أسير إلى هنا أو هناك علَّ الوقت ينقضي، إلا أنه ما إن وضع قدميه على الطريق الذي يسير فيها الناس حتى انقض عليه أحد أهالي القرية، وكان شابًا ماجنًا يرتدي المسخ من ثيابه، كثير الحركة يتكلم بصوت عال ولا يسمع ما يقال له، أو حتى يترك أحدًا يتكلم، وقفز بكل جسده، تسبقه يديه إلى أليعاذر يدعي عليه ويسب ويشتم، وحاول أليعاذر أن يوقفه يستوضح منه، فلم يمكنه من الكلام، وما إن نهره أليعاذر ورماه بعيد عنه حتى أسرع الشاب الماجن إلى التقاط حجر ورماه به، محدثًا ألمًا شديدًا ونزيفًا من الدماء غطى وجهه وملابسه، وليته تركه بل أسرع يتعلق ببدن أليعاذر يصيح فيه ويسب ويشتم ويقول قولاً لا

يقوله الرجال بل ويزيد قائلا: «إن هذا الدم لو بقي لأضربك فاعطني أجري». ورفض أليعاذر وزادت حدته، فما كان منه إلا وناوله بقبضة من يده لحقت رقبة الشاب حتى كاد أن يقضي عليه، ففلت منه وعبط فيه من خلفة ولم يتمكن من التخلص منه حتى اجتمعت الناس والتفوا حولهما، والكل يؤنب أليعاذر ويتهموه بالاعتداء على الشاب، وأنه لا يجب أن يكون مثلك معتدي، هكذا قال واحد من أهل القرية، وقالوا يجب الذهاب إلى القاضي يحكم بينكما، وارتاح إلى ما قالوا لأنه بالفعل على موعد مع هذا القاضي بشأن شكواه فيمن حاولوا الاعتداء علي قافلته، وتعلق اللصوص به، إلا أنه سرعان ما اغتم لأنه تذكر ما قيل عن القاضي الفاسد الذي هو على شاكلتهم، والذي لا يسمع إلا منهم، لكن لا مانع من أعرف بنفسي، علّه يكون غير ما قيل عنه، ويكون من المقسطين الذين يزنون القضايا بقدرها، ويفصلون فيها دون هوى، وكم تمنى أن يكون الرجل الذي قابله في ديوان القاضي من الكاذبين، أو المدعيين زورا عليه، وعلي كل الأحوال سوف يستعرض أمره والأمر لله في الأول والآخر، ولسوف يبين للقاضي أمرهم، وما مقدار تجاوزهم على قافلته، ورأسه التي سال منها الدم، وكذا ما فعل الشاب الماجن معه. وساروا جميعهم معا للترافع إلى قاض سدوم.

وما إن شاهد القاضي وما هو عليه، والذي سبق أن وقف

أمامه، حتى أدرك أنه لا طائل منه، وأنه على شاكلتهم، وسمع القاضي الطرفين، وكان القاضي غير مكترث بما قال وشرح أليعاذر، بل وكان جالس في مجلسه وهو ملول متأفف، بل يبدو أنه بعيد عن وقار القضاة، فهو غير مهندم في ملابسه، محلول الإزار، عمامته منحرفة، كثيف الشعر كغالبية الموجودين من أهل القرية، يحملون في جيوبهم أشياء غير منظوره، وسرعان ما يتناولون العلك ويتكلمون وهي في أفواههم كالقاضي الجالس، حتى لحاهم مقصوصة مرصوصة، والحناء تغطي يديهم وأجسادهم، وهكذا هيئته تشبه كل من كانوا معه حتى أنهم لم يبدوا لمجلسه وقارًا أو احترامًا، فكانت أصواتهم عالية وحركتهم لا تتوقف، وإشاراتهم في أثناء الحديث تسبق اللسان، وكانت مآزرهم منحله يرفعونها بأيديهم، والعمامة في غير موضعها، كل أجسادهم مزينة بالحناء، وبدأ الترافع أو المجادلة التي يتحدث فيها الجميع إلا أليعاذر الذي ظل مبهوتًا مندهشًا، وكأن لسانه قد شل من هول ما شاهده في مجلس القاضي، ولم يمكنوه من الترافع، أو أن يقص للقاضي ما فعلوه، وما بدر منهم، واعتدائهم على القافلة، وعليه، وأحدثوا به إصابة خلفت دم ظاهر على وجهه وملابسه، وكلما رفع صوته يقول أمرًا للقاضي يزيدوا من لغوهم.

فلما انتهوا من أحاديثهم التي لا يفهم منها ماهيتها وكنها،

ولم يطل القاضي في نطقه بالحكم، وحكم على أليعاذر بأن يعطى للسدومي أجر ما ضربه به في رأسه فأسال الدم، جن جنون أليعاذر واشتعل غيظًا مما حكم به، فهذا القاضي لم يسمعه أو يعطيه الحق، وهؤلاء جادلوا وعليت أصواتهم ولم ينطقوا إلا زورًا وبهتانًا، وفي حكمه يغرمه بغرامة لا يستحقها، فعلم أن هناك جور لحق به، وأنه لا يصح لكبير عبيد سيده إبراهيم النبي الحنيف أن يفعل به ذلك.

فلما رأى أليعاذر الجور من القاضي والخصم في أمره، عمد إلى حجر ضرب به رأس القاضي فأسال دمه، وقال له: «الأجر الذي وجب لي عليك من إساله دمك عليك أن تعطيه لضاربي السدومي جزاء ضربه إياي، وأساله دمى». وترك مجلسه وخرج وهو شديد الغضب ومستعد لمقاومة أي من يقترب منه، حتى أن من كان بالمجلس خاف وتراجع عنه وتركوه يخرج متقدمًا إلى القافلة، وهو ينهر الجميع ويحسهم على ترك هذه القرية بعدما يسلم آل لوط ما أوصت به السيدة سارة.

نعم أتذكر ذلك وكان هذا القاض يضرب به المثل في الجور فيقال أجور من قاضى سدوم، فقال لوط عليه السلام:

هؤلاء القوم قد تكبروا ونشروا الفاحشة جهارًا نهارًا، ولا طائل مع زعماء قبائلهم بل هم ممن يحرضوهم على الفحش

والتنكيل، وكانوا يفعلوه داخل ناديهم سواء مع النساء أو الرجال، وما يفعلوه بالأطفال أيضا حتى أصبح في وضح النهار، وفى كل الأرجاء، بل ويقطعون الطريق ويسلبون وينهبون التجار وغيرهم، فهم يفعلون الزنا فيمن بينهم كرجال ونسائهن فعلن مثلهم ويتعمدوا أن يتركوا ما حلله الله لهم.

لم يسبق لها مثيل من قبل، وهي علاقة الرجل بالرجل، لم يسبق إليها أحدٌ غيرهم، إنني، والله شهيد، دعوتهم جهارًا نهارًا قائلاً إنني رسول أمين من رب العالمين فاتقوا الله ولا تظلمون وأطيعون، إنني لا أنال منكم أجرًا، إن أجري إلا على رب العالمين، إلا أنهم كذبوني، بل إنهم هددوني بطردي وإخراجي من القرية التي نعيش فيها، «قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ».

وصمتُ محدقًا إلى اللاشيء، وقالت إحدى ابنتيه، وهي تقف موجهة كلامها إليه تقول:

- أبي إنهم أناس جبارون، وإن هؤلاء لا أمان لهم ولا أمانة، ولا عهد أو وعد معهم، إنهم يعاندون أنفسهم حتى تمسكوا بالفاحشة ما ظهر منها وما بطن، أشاعوا الوباء وسعوا يبدلون طبيعة الرجال والنساء، فهم ابتكروا أعمال التزيين وعمل الحناء، وزينوا أجسادهم، وكان الرجال يتمايلون

كالنساء، إنهم يمشطون شعورهم أيضًا، أصواتهم قريبة منهم، أو أصواتهم عالية، ومنهم من يعكف عابدًا للأصنام، هم يرمون بالحصى والطين، يلعبون بالديكة، ويتراهنون عليها، والعلكة لا تترك أفواههم، لحاهم مقصوصة، حتى ملابسهم خليعة، وعمامتهم لا مستقر لها، ولهوهم فيما هو مخالف للناموس، الخمر رفيقهم ليلاً ونهارًا، يا أبي تعلم أنهم لم يتركوا أي فعل خبيث إلا فعلوه، بل ونشروه، وما إن ناديت فيهم بالصلاح والإصلاح، إلا وقالوا أخرجوهم من قريتكم، إنهم أناس لا يتطهرون، إذ أنهم لا يعلمون التطهر من عدمه، وكيف تكون الطهارة، وكانوا يعيبون علينا أننا متطهرون وأننا متحرجون مما يفعلون، «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ»، يا أبي لقد أقمت فيهم سنوات ودعوت دعوتك، وهم أعلم بصلاحك ونقائك، ومع ذلك عندما يضيق بهم وعظك وإرشادك يودون أن تتركهم، أو يخرجوك من القرية ولو بالقوة.

وانتهت لكن لوط لم يعقب على ما سردته ابنته، بل أيد قولها بإيماءة من راسه.

ثان عشر

والهة

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ»

وما إن احذوا قسطًا من الراحة، وكذا قليلاً من السكينة حتى وقفت ابنته زغرتا تقول بصوت مرتفع، يبدو عليها الغضب والتجهم، قائلة:

- يا أبى كيف ولما كانت أمنا والهة منهم، هؤلاء القوم، فهي كانت تؤازرهم، بل كانت تشي بنا عندهم، وتشاركهم إثمهم وتدلهم على من يأتي إلينا من الضيوف، ولم تؤمن بدعوتك، أو حتى تناصرك، أو تكف عن اتباع أهلها الفاسدين، وكل ما أتذكرها أتعجب كيف كانت تحيا بيننا وهي على هذا الحال، منذ أن خلقنا منها ومنك، إنها كانت مغيبة تمامًا، لا تقبل أن نتحدث بسوء عن أهلها، بل وتنهرنا إن غضبنا منهم على ما كانوا يصنعون معك في دعوتك إليهم، ونهرك لأعمالهم الشنيعة، وقتها تنفعل وتطالبنا بالصمت أو الوعد بالزجر.

وقف لوط بجوارها يقول: «صدقتِ ما هي إلا عجوز من الغابرين فلم تكن تطيعني، ولم تكن من المؤمنين، ولا أملك

أن أجبرها، أو غيرها أن تؤمن بالدين، فرب العزة شاء أن يكون الإيمان بالرغبة فيه، وليس بالإجبار عليه، فما بالكم بزوجة نبي، فلا إكراه في طاعة الله، واتباع دينه، وهي كانت مع أهلها تناصرهم، وتشي بي عندهم وتمدهم بما يودون.

ثم أشاح بوجه يعبر عن استيائه مستنكرا لأفعالها التي فعلت، وارتفع صوته وكأنها تقف أمامه قائلا:

- ما بك والهة فقد كنت معي وتعلمين بأمر دعوتي وتوحيدي، وتحت إمرتي، فلم أبيتِ نصحي وإرشادي، واتبعتِ جهل وجحود قومكِ، وهم على ضلالهم مصممين ومحافظين، حتى أبيت دعوتي وبغيت معهم وتناسيتِ أنني من المرسلين.

ثم وجه وجهه لابنتيه قائلاً:

- عندما أنجبتكم ظننت أنها ستصبح من المخلصين الصالحين، وأن تستقيم لما أدعوها إليه وتبتعد عن بدع أهلها وتستوي مع الحق الذي نحن فيه، ولكننا لا نستطيع أن نهدي من أحببنا، ولكن الله يهدي من يشاء، ولا أملك أن أجبرها على الإيمان، فلا إكراه في الدين، وربي أعلم بما فعلت بنا.

واقتربت منه ريثا حانية وقالت:

- يا أبى وما الحكمة أنها كانت من الغابرين، ولمَ لم تدعوا

لها، إن ربنا لرؤوف رحيم، وقد فعلها أبونا ونبينا إبراهيم عندما دعا لأبيه أن يغفر له وإن كان من الضالين.

«وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ».

ووضع يده على كتفها يقول:

- دعوت لها ربي، بل ودعوتها إلى الرشد والرشاد، واتباع الخيرات ونبذ النعرات القبلية، وأن الباقي هو الله، وليس الأهل أو العشيرة، وعبادة الله هي النعيم والجنة مأوى للمتقين، وأهم من الانسياق وراء أهل السوء حتى ولو كانوا ذوي قربى، إلا أنها أبت واستعصت، بل واتبعت قوم منكرين، حتى أنها ولت عني، بل وتحالفت مع قبيلتها، والأمر كله بيد الله، وهي تخيرت أمرها، وأظنها من الهالكات، كما أنها لم تكن الأولى التي لم تطع زوجها، وتتبع رسالته، فقد فعل ابن أبينا ونبينا نوح عليه السلام وزوجته، وكذا والد عمنا إبراهيم عليه السلام، ولا تسألن عن سبب إنكارهن لرسالة أزواجهن السماوية، ربنا شاء أن يعطي عبرًا ودروسًا لبني البشر، ولتكن آية لقوم يعقلون، فالحكمة يعلمها رب السموات والأرض.

فقاطعته ريثا قائلة:

- ألم تسال يا أبى عما يقول الناس عن أن أمنا زوجة

النبي، لمَ لم تدخل أو تصدق دعوته، فكيف بهم يفعلون، ألم يتحدثوا عن ذلك؟

- بلى، طرح مقبول وحديث جرى، ولن يقف، إلا أنها آيات بيانات من لدن رب كريم فما أنا إلا من المرسلين، وما أنا إلا من المبشرين، أرسلني الله بلسان هؤلاء القوم لأبين لهم، فيُضل الله من يشاء ويهدي من يشاء، وهو العزيز الحكيم، ومن آيات ربنا علينا أننا نرشد وننذر الذين كفروا وبالباطل يؤمنون، لقد استحبت أمكم الحياة الدنيا واتبعت قومها الضالين، فكانت لهم مطيعة، وتنساق لأهلها وعشيرتها وهى غاوية بما يغوون، ولاهية بما يلهون، بل إنها باعت ما تبقى من عشرتي وكانت واشية لهم عني، وعمن يأتيني تائبًا، أو حتى راغبًا في التوبة، فهي تسعى للوشاية حتى يقضوا على كل قادم للتوبة

ثم يعود يتكلم وكأنها أمامه:

- أواه يا والهة، فعلتِ الكثير، وظلمتِ نفسك أكثر فلك وعليك ما تستحقين.

وقالت ريثا:

- والله يا أبى حاولنا حال أن علمنا بأمر ربنا ودعوتك التي أنار الله بها قلوبنا، إن ندعو أمنا للتوحيد وعبادة الواحد

القهار، وأن نهديها سبل النجاة ونذكرها بما أنت عليه وفيه، وأن النجاة مع التوحيد، إلا أنها كانت نافرة ناهية آمرة لنا بالصمت، أو الإيذاء، ولا تفتأ إلا أن تحرضنا وتقلبنا عليك.

ثالث عشر

حوار الابنتان

انفردت الأختان وهما تقفان أمام فتحة المغارة، بينما أبيهما لوط عليه السلام ممدًا على الأرض يسترق لحظات صفاء وغفلة سريعة تريحه مما كان فيه.

وقالت زغرتا:

- أتتذكرين يا أختاه حال أن أتانا ضيوف أبي ما كان حالنا وما كنا عليه

- وكيف أنسى؟! يوم أن جاءونا وكنا وقتذاك على الطريق، وما إن شاهدناهم، وكانوا فتية ثلاثة، وقد أقبلوا علينا، وكنا عند نهر سدوم نستسقى من الماء، فآثرت أن أتجنبهم أولاً، بل وأشحتى بوجهك عنهم علهم يبتعدون.

- بل نويت إن أتوا إلينا ونحن نستسقي بأن أدلهم وأكون ناصحة لهم بالابتعاد عن هذه القرية.

- ولكنك لم تفلحين في ذلك.

- فقلت أن أرسلك لأبينا لعل عنده الوسيلة لإنقاذ هؤلاء الفتية، ويغيثنا مما قد يحدث لهم من أهل القرية، وحتى لا

يقابلهم الغابرون الفاسقون.

- نعم وكاد قلبي أن ينفطر آنذاك.

- وحاولت أن ألهيهم عن المكوث في هذه القرية، وأثنيهم عن الحضور إلينا، وأشرت إليهم، وأشرت بيدي لكي يبتعدوا، إلا أنهم كانوا عازمين ومصرين على القدوم كضيوف، ولم أعرف أو حتى أدرك أنهم من عند رب كريم، وأنهم ملائكة مرسلين، فقد كانوا على هيئة شباب جرد مرد في غاية الجمال والكمال، وكانوا كلما اقتربوا مني تزداد ضربات قلبي ورجفة جسدي، بل شعرت بانتفاضته وهم أمامي، حتى أن ألقوا السلام فهدئت، وسكن الارتعاش وشعرت بالطمأنينة، وعندما سألوا عن أهل الدار وعن نزلهم عندنا، وأنهم قد أرادوا أن نستضيفهم، وأن يقضوا يومهم عندنا، وكانوا ثلاثة ولم أملك أو أستطع أن أرفض ضيافتهم، وكنت أتمنى أن أردهم عن كل القرية، وأن أقول لهم إنها قرية فاجرة كافرة، وإنني أخشى عليكم من أهلها، وكنت على علم تام أننا لا نملك رفض الضيافة، كما أننا لا نقدر على حمايتهم حتى أتي أبونا وتعامل معهم.

وردت اختاه اتذكر وكم كنت على صواب في الذهاب وان أخطر ابينا بهؤلاء الفتية

وما إن سمع لوط عليه السلام الحوار حتى قام من رقدته،

وتوجه إليهم بوجه بشوش، مطمئن البال وأحاطهم بيده ولم يتكلم.

واستكملت ريثا تقول له:

- ولكن يا أبى إن هؤلاء الفتية لم نر مثلهم من قبل، فهم من الحسن والقوة غير عاديين، ولقد تاه عقلي مني يا أبى، وشردت وهم وقوفًا عندما تذكرت قول زعماء القبائل وكبار العائلات بالقرية، فقد قالوا لنا لا تستضف رجالاً في بيتك، وإن الرجال من حق هؤلاء القوم، وهذا يعني أن من يأتي إلى دارنا من الضيوف فعلينا إخطارهم بهم، وساعتها لن يتركوهم أبدًا، وكم ازداد رعبي أن تراهم أمنا وتشي بهم لأهلها، والحمد لله أتيت ورفعت عني بعضًا من الهلع، وأضفت القليل من الطمأنينة.

- نعم يا ريثا وأنا أيضا انتقل إليّ الخوف، وخشيت عليهم وهم ضيوف عندنا، وأنا الأولى بحمايتهم.

وهنا تطلعت ابنته إليه، وقالت:

- لم يتسنى لنا أن نعرف ما دار بينك وبين ضيوفك حال لقائك بهم

قال:

- حرصت حال أن شاهدتهم أن أتخفى عنهم أول الأمر، لأنني خشيت أن يراني أحد من أهل القرية معهم، لكنني لم أستطع إلا أن أستضيفهم، وذهبت لمقابلتهم، وحين ألقيت عليهم السلام ردوا بأحسن منه، وكانوا فتية حسان، ولم أملك إلا أن قلت لهم أن يتبعوني، وفى الطريق كنت أنظر هنا وهناك، أخشى أن يراهم معي أحد من أهل القرية الظالمة، ولقد لاحظوا ترددي والتفاتي يمينًا ويسارًا، وكم ظهر الخوف عليّ، بل وازداد اضطرابي، وما إن وجهت وجهي إليهم متسائلاً: أولم يخبرونكم عن خبر هذه القرية أو ما بلغكم أمرها؟ وأجابوا متسائلين «وما أمرهم»، فقلت أشهد بالله إنها لشر قرية على وجه الأرض، إن هؤلاء الناس يرتكبون الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، ويقطعون الطريق، ويأتون في ناديهم المنكر، وأعدتها على مسامعهم أربع مرات، إلا أنهم استمروا في السير معي دونما تعقيب منهم، وكنت في أشد حالتي خوفًا وهلعًا مما قد يحدث لهم من هؤلاء القوم، وكنت أدعو الله إلا أُخذي في ضيوفي، حتى دخلوا إلى بيتنا، وما أن شاهدتهم أمكم والهة حتى أسرعت، وكأنها لُسعت من قبس من النار، وكل جسدها انتفض، وكانت تريد الخروج من البيت وودت ذلك بشدة وإلحاح، لولا منعكما إياها من الخروج، ولكنها عاندت ولم تأبه لتحذيركما، وظلت تجوب البيت تود أن تخطر أهلها بضيوفي، ورجوناها ألا تفعل حتى

لا تكون فتنة، وكفى بها ما تفعل فيما تنشره من أخبارنا إلى أهلها، وأن تكتم ما تراه هذه المرة، فهم ضيوف ولهم حقوق علينا أقلها الحماية

والتفتت ريثا تقول:

- نعم يا أبى فأمنا لا تعبأ إلا بأهلها وعشيرتها، ولا تنتمي إلا لهم حتى أنها كانت تقسو علينا من أجلهم، وتعاتبنا حد الإيذاء لمجرد أننا نرشدها، ونؤكد أن والدنا نبي مرسل من عند رب الناس، إلا أنها كانت صماء لا تسمع.

ثم حل صمت رهيب، وطنين الصمت كاد يؤرقهم ثم انتهى الصمت بقول زغرتا:

- أواه يا أماه ما إن رأت الفتيان عندنا حتى جن جنونها، ولم نفلح في احتوائها، وقد فشلنا في منعها من الخروج، بل وإصرارها عليه، وما إن أعيانا وصعب علينا أن ننهيها عن الخروج، أفلتت منا ومن حصارنا إياها وسارعت الصعود إلى سطح بيتنا بل وقامت بإشعال نار تنبه أهلها وذويها أن هناك أمر ما في بيتنا. أو تنبئهم بطريقتها هذه وهي تشير لأهلها على وجود أغراب أو أي أمر جديد في بيتنا. وما إن تركناها تفعل ما تريد، لأننا يأسنا من اللحاق بها، وجدت فرصة وتسللت بعد ذلك إلى أهلها، وكانت كالتي فقدت رشادها، فكلما تجد أحدًا من أهل القرية قالت له إن في دارنا

فتية لم أر في حسنهم أحد، بل كانت تتكلم وتردد بصوت مسموع حتى ولو يكن هناك أحد يسمعها، قائلة في بيت لوط رجال لم أر في حسنهم قط، وكأنها أصيبت بلوثة، كما أنني لا أنسى قولها، وهي تصيح فينا، وهي تشير بيديها الاثنتين تريد أن تؤكد الأمر وتقول: ألم نُحذر من استضافة الرجال في بيتنا، ومنذ متى وأبيكم لوط يخالف وعدًا أو عهدًا. فقلنا لها إنه ليس بوعد أو عهد، إن الوعود مع من يفي بها وعهد لمن يملكه، وليس في أهل هذه القرية رجال يصدقون أو يلتزمون بالعهد، وأبانا لم يقل أو يلتزم معهم لا بهذا أو بذاك، فاتقي الله فينا، ولكنها عاندت وأصرت على قولها وهي تردد: إن هؤلاء الرجال من حق قومها.

والتفتت ريثا إلى أبيها تقول:

- أبى كيف يكون ذلك؟ إنها أمنا التي انجبتنا، والتي قضت سنوات بين جدران بيت النبوة، وسمعت وعلمت من أمرك كرسول لقومها، ألم تعي الدعوة إلى التوحيد؟ هل القلوب تتنافر إلى هذا الحد؟ فهي فينا سنوات، سبحان الله!

- صدقت يا ابنتي فقد كانت فينا سنوات، وسمعت ورأت ما يفعلون بنا، ولم تناصرنا، أو تدخل في ديننا، بل إنها بغت ببغيهم، ولم يفلح معها النصح والإرشاد، ولا أنسى وهي تهرول خارج البيت لتشي بنا إلى أهلها، وتخبرهم عن أمر

الضيوف، ومن قبل إشعال النار، لقد أساءت وكانت من الهالكات.

وارتفع صوت لوط عليه السلام يحمد ويشكر فضل ربه، ويثني عليه ويقول:

- الحمد لله الذي أفنى هذه القرية، وله الشكر على نجاتي مع بناتي منهم.

وتقول إحدى ابنتيه:

- ولكن يا أبى ألم تعلم أن هؤلاء الضيوف كانوا ملائكة مرسلين من ربنا الكريم؟

- نعم لم أكن أعلم أول الأمر، والعلم كله عند الله، وكان كل خوفي وهلعي أن ينالوا من ضيوفي، فيعاب عليّ لأنني لم أحم ضيوفي، فللضيوف قدر وأمن وحماية، ورغم أنهم أساءوا إليهم، ولولا فضل الله لكنت من الهالكين، «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ»، وعلمت بعد ذلك أنهم من الملائكة التي أتوا لتقيم الحجة عليهم، وما يفعلون، ثم يعاقبونهم بما يستحقون.

رابع عشر

ولما جاءت رسلنا

يا الله، كلما أتذكر ما قامت به أمكم حال خروجها من بيتنا، وهي ملهوفة متشوقة إلى الخروج إلى قومها، وهي الشقية خرجت من الشق، فأتتهم فدعتهم وقالت لهم: تعالوا فإنه قد جاء قوم لم أر قطّ أحسن وجوها منهم، ولا أحسن ثيابًا ولا أطيب أرواحا منهم، فجاءوه يهرعون إلينا مهرولين، وما إن شعرت بهم وسمعتهم خارج البيت حتى هلعت، وألم بي الخوف ودعوت ربي أن ينجي ضيوفي من هؤلاء البغاة الظالمين، وقلت لهم هؤلاء ضيوفي فلا تخزوني. ولم يشفع عندهم توسلي إليهم أن يبتعدوا، وما استجمعت قولي، وقلت لهم إني أحذركم وأنذركم أن يبطش بكم ربكم، وإن عقابه لواقع فلا تتماروا بالنذر، واتقوا الله تسلمون من عذابه، فتنادوا يقولوا: إنا لا نصدقك يا لوط، جلست فينا سنين ولم نر عذاب ربك هذا، فخلي بيننا وبين ضيوفك لقد تواعدنا فلا تخلف الوعد.

إن هؤلاء ضيوفي فاتقوا الله، ولا تخزوني عندهم وأنا اعلم ما يبغون منهم، قالوا: أولم ننهك عن العالمين. فما كان مني إلا أن أسرعت إلى إغلاق الباب، وحضنته بما امتلكت،

فأغلقت دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وناديت فيهم أليس منكم رجل رشيد، فينهاكم عن فجوركم هذا، حاولت منعهم من اقتحام البيت، ولأنهم كثر، وما إن رأوني مغلقًا الباب حتى تسلل بعضهم، وصعد إلى سقف البيت، يحاولون اقتحامه، والبعض الآخر أحاطوا ببيتنا، وكانوا كثر ولما لم تمنعهم حصوني حاولوا تحطيم البيت، وهم في عزم على الاقتحام، ولم يمض وقت كبير حتى كدت أن أنهار، فقد أعياني التعب، وكلت قوتي، وألم بي الخزي والهوان والضعف، وكنت وحيدًا، لا سند لي، وأبحث عن مكان يأويني حتى لا يصلوا إلى ضيوفي، إلا أنهم أصروا على النيل مني أمام ضيوفي، وهم يهددون ويتوعدون ويصيحون ويشعلون النار، وكم كنت هلعًا مفزوعًا، وكم كنت أتمنى ألا أسمع صياحهم، فهو كالأنين أو أشد قسوة «قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ»، وقتها أتاني هاتف من داخلي يقول لي: أن أعرض عليهم أن يتزوجوا بكما فهذا أزكي وأطهر لهم، وكذا درءًا لأي مفسدة قد تحدث في بيتنا، وظننت أنهم قد يكفوا ويرضوا بكما زوجات، وقلت لهم إن بناتي أطهر لكم من إتيان الرجال، فقالوا ما لنا في بناتك أرب، «قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ»، ولا نبغي إلا الرجال وأنت من تؤويهم الآن، فخل بيننا وبينهم ونحن لك لمنذرين، إما أن تخل بيننا وبينهم أو تكونن من الهالكين.

وما إن سمعت قولهم هذا وتحذيرهم زاد همي، وانشغالي على ضيوفنا، يا الله، كم كنت أتمنى ممن حضروا ليقتحموا البيت ويرغبون أن ينالوا من الضيوف أن يستجيبوا لي، ويعملوا بنصحي وإرشادي وأن يرحموا أنفسهم.

- ترى يا أبي هل كنت تنوي أن تزوجنا منهم، أم أنك أجبرت على القول، أم هي لإلهائهم عن الضيوف؟

- كنت أدعوهم لأن تكونوا لهم زوجات فاضلات، وما كان عرضي لهم إياكم إلا بغرض ونية الزواج، لكي يتطهروا مما هم فيه، وإياكم أن تنسوا أن عرضي بالزواج ما هو إلا عرض أحرار وليس عرضًا آخر، فالزواج له قدسيته، وهو أمر قويم لكل من يتزوج، ولأنكما مكرمات، والنكاح يا ابنتيّ لا يكون إلا على طهارة، ألا وهو الزواج الحلال، فقالوا لي إن ذاك ليس لنا فيه أرب، وإنك لتعلم ما نريد! ولكنهم رفضوا الزواج الحلال والطريق القويم لكل متزوج، وفضلوا الفساد في الأرض والفجور فيما بينهم، وإتيان شهوتهم في الرجال من دون النساء، والغرض أنهم رفضوا ما عرضته عليهم، ولأنهم يعلمون أنهم ليسوا على الحق فقد أقروا بذلك، واشتد الأمر عليّ ونال مني الخوف والرهبة، وناديت ربي أن ينجينا منهم وقلت رافعا صوتي «قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آَوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»، أنتما تعلمان أننا لا أهل لنا ولا قبلة ولا سند نلجأ

إليه بعد ربنا العلي العظيم، وإلا كنت نكلت بهم، وأحللت عليهم البأس وفعلت فيهم الأفاعيل، حتى وصل بي الأمر إلى منتهاه، واشتد الكرب، ونال مني، وحين رآني ضيف من الضيوف، وعلمت بعد ذلك أن السائل هو جبريل عليه السلام، وهو من الملائكة الذين نزلوا عندنا كضيوف، وكنت لا أعلم اسمه من قبل، وسألني وهو يرى حالي خائفًا هلوعًا: «ما يهولك من هؤلاء»، فقلت: يريدون ارتكاب الكبيرة وهي التي لم تحدث من قبل، فقال: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، لا تخف ولا تحزن، إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك، فلتصنع هذا الأمر سرًّا وليكوننّ فيه بلاء. فاطمئن فؤادي وارتاح بدني وكم كان يقيني بالله كاملاً، وإنه سوف ينجينا من هؤلاء الباغيين المنكرين، ثم وجدت الرسول يقول لي إنهم لن يصلوا إليك، وأمرني ألا أخاف وأن أفتح الباب، وما كان مني إلا أن فعلت وفتحت باب الدار فما إن شرعوا بالولوج إلى بيتنا وهم مندفعين متكالبين، ومتخبطين ملهوفين، لاهثة أنفاسهم، وكأنهم قد قدموا من قلب الصحراء القاحلة هرولة، بل إنهم غرقى في عرقهم، وتلطخت وجوههم بالرمال، وملابسهم قد فكت من الإزار، وبانت أجسادهم وخلعت عنهم العمائم، وكانوا لاهين لا هم لهم إلا النيل من الضيوف، وهنا وقف جبريل الرسول فصفقهم بجناحه بإذن الله فتركهم عميانًا، فطمسنا أعينهم، يترددون متحيرين

لا يهتدون إلى الباب وكانوا عمي لا يرون ولا يملكون من أمرهم أمرًا، ولا يستطيعون أن يسيروا فخرجوا إلى الفضاء يتخبطون، وهذا كان يقيني برب العالمين، إنه على كل شيء قدير وبحالنا وأحوالنا عليم، فارتاحت نفسي قليلاً، وكانت الملائكة تريد أن تسمع وترى هذه المواصفات، ولقد راودوه عن ضيفه حتى أنني علمت منهم أنهم هالكون، فسألتهم متى موعد هلاكهم، فأجابوني إن موعدهم الصبح، فقلت لهم لو اهلكتموهم الآن، فقالوا لي أليس الصبح بقريب، فسكت خشية ازدياد غضبي وخوفي من أن أتعدى أمر الله الكريم. وقتها علمت أن هؤلاء الضيوف ملائكة وهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل في صورة شباب مرد حسان، محنة من الله بهم.

خامس عشر

فطمس أعينهم

- يا أبي كانوا عمي لا يبصرون.

- نعم وأطعت رسول الله جبريل، بأن يدخلوا بيتنا، حتى رفع جبريل عليه السلام جناحيه فأعماهم وغشيهم فطمست أعينهم تمامًا، وساروا وكأن ليس لهم وجوه بل كأنها مدفونة في التراب، فساروا وهم مترنحين متخبطين، لا يروا أمرًا فيما بينهم، وعلت أصوات ذويهم يتوعدونني. وفر من كان مختبئًا أعلي سطح بيتنا، ومنهم من أسقط نفسه، أو كان يتوارى في شق من البيت، وعلت الأصوات فيما بين نسائهم وذويهم، وفجعوا من هول ما شاهدوهم عمي، لا عيون لهم، وكلما تخبطوا في الأرض يعلوا الصياح والعويل، وارتعبوا، وانزوى من كان هائجًا، وانطوى جانبًا، يلملمون أمرهم وشتاتهم، فقلت لهم أولم أنذركم؟ ولقد أنذرتكم ما أنذركم من العذاب. فساروا لا يعرفون الطريق، ولا يهتدون إلى بيوتهم، وانصرفوا وهم يرددون «النجاة.. النجاة» فذوقوا عذابي ونذري.

- لكنك يا أبي لم تكن تعلم حقًا في أول الأمر أنهم ملائكة من عند الله.

- لم أكن أعلم بأنهم ملائكة مرسلين من عند رب كريم فعال لما يريد، وكما علمت أيضًا أن ربنا الجبار الكبير المتعال، كان قد أمر الملائكة ألا يهلكوهم إلا إن شهدت عليهم، وأدركت ذلك لاحقًا، وما إن طالبون بأن أدعهم، وطلبوها صراحة أن أدعهم يدخلون، ورغم ترددي إلا أنني فعلت ما طلبوا، وحدث ما قصصته عليكما، كما أن الملائكة المنزلون من الواحد الأحد، مالك الملك، منزلون لهذا الغرض ومأمورون من ربهم ألا يهلكوا هذه القرى إلا بعد أن أشهد عليهم، وتكون شهادتي دونما أن أعرف أنهم ملائكة من الرحمن، وأنهم رسل، وعلمت أيضا أن جبريل ما أن نشر جناحيه ضاربًا وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم. وما إن انتشر خبر طمس أعين من حاولوا اقتحام بيتنا والاعتداء على ضيوفنا، وما جري لهؤلاء، فقد كان جميع من في القرية هلعين مرعوبين، كما أن فقدهم أعينهم أصابهم بالتيه، وكنت أسمع كلما علت الأصوات بالبكاء والنواح من الرجال والنساء، وولولتهم على حال من أصيبوا بالطمس، وزاد الرعب بينهم واجتمع القادة، وعزموا على أمر ينالون به مني.

- وما كان ذلك يا أبي؟

- فقد أمروا أتباعهم أن يشيعوا في القرية أن لوطًا يؤوي سحرة، وأنهم سوف ينالون من الجميع من ذهب إلى الدار،

أو يقف معهم، وأن لوطًا استعان بالسحرة لينال مننا، نحن قومه، فلا تتركوه ومن معه سالمًا، وما إن اجتمع جمع منهم ومعهم من يتزعمهم من كبارهم وزعمائهم، وقد عزموا وقرروا أن يأتوا إلى دارنا ليهددونا، وأشاعوا أنهم سوف ينالون منا جزاء ما فعلناه في رجالهم، وجعلهم تائهين، غير مبصرين، وقال كبيرهم عندما أتى إلى دارنا نادى يقول «يا لوط أجئتنا بسحرة يسحرونا، إننا نريد أن يعود رجالنا إلى حيث كانوا قبل لقائك، ولقاء هؤلاء السحرة، وإلا الويل لك منا، سوف نؤذيك إن لم تفعل ما نطلب منك»، أب أن يعود المسحورون إلى ما كانوا عليه، وكنت قد علمت ما أمر به الله، وكذا ما دور الملائكة، فاطمئن قلبي، ولم أعبأ بما يقولون، فقولهم لا محل له، وما إن علمت أيضًا أن موعدهم الصبح. أليس الصبح بقريب.

السادس عشر

الخروج

- أمرنا جبريل أن نخرج في جنح الليل، حتى لا يصبنا مكروه مما سيفعله بقومنا، وقال لي «إنا رسل ربك، لن يصلوا إليك، فأسر بأهلك بقطع من الليل، واتبع إدبارهم، ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تأمرون»، وما إن قال جبريل قوله أدركت أن أمر الله نافذ على هؤلاء. وقد شاء الله وتم ما أمر به، والحمد لله الذي نجانا من القوم الكافرين.

وما أن انتهى لوط عليه السلام وصمت، توجه إلى ركن المغارة شاردًا حتى لحقت به ابنته تقول:

- إنها أحداث مؤلمة قاتمة، ففيها من الغم والهم الكثير، وكربها أشد قسوة وضراوة، لا تبتئس يا أبى فهم قوم يستحقوا حكم الله عليهم.

- نعم يا ابنتي، فهم أتوا بما لم يأت به أحد في العالمين، ففحشهم فاق الحد وجهرهم به فظيع، ولم يكتفوا بل كانوا يقطعون الطريق ويخونون الرفيق، وبياتهم في ناديهم، وهو جمعهم ومجتمعهم، ومحل حديثهم وسمرهم المنكر، ليس بالفعل فقط بل والقول أيضًا، فكانوا لا يتقنون إلا في النكال والخداع والالتواء، «إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ»، وهو أمر لا يرد،

ولا يرد بأسه، ولا معقب لحكمه، «وَإِنَّهُمْ آَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ». والله أعلم أنني كنت أدعوهم جهارًا نهارًا، وأنهم كانوا صم بكم لا يسمعون، ولا ينتهون، ولم يرجعوا عن غيهم، ولا يستنكفون من الأمر، وظلوا في فحشهم فاعلين، يأتون الرجال شهوة من دون النساء، في أي وقت وأي مكان، ليلاً أو نهارًا، وكانوا يتركون النساء حرثهم، وعكسوا ناموس البشر، كون النساء هن موطأ الرجال، ولم يرحموا أطفالهم فساقوهم إلى الهاوية، وشبوا على فجر آبائهم، وأشد فسقًا فما خلفوا إلا الدمار المبين والغريب والمستغرب، إنهم موقنون أنهم لا يفعلون إلا الصحيح.

وهنا قالت ابنته:

- نعم يا أبى، وكم كانت نسائهن يعانين من جراء ذلك! ومحاولتهن البحث عن بدائل لهن، أي كانت وهي في الغالب غير شرعية، ولا أنسى قولك لهم: «أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ».

وقال لوطا عليه السلام:

- الحمد لله الذي نجانا من القوم الكافرين، وإن ما حاق بهم لهو قصاص ربنا الحق، «رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ».

- قل لنا يا أبى ما فعلوا الرسل بهم.

وقالت الأخرى:

- نعم فقد سيء بهم وضاقوا بهم ذرعا

وجاور لوط عليه السلام ابنتيه، وقص عليهما يقول:

- لقد أخبرني جبريل أن عذاب هؤلاء واقع، ليس لهم شافع، وإنه قد أتى أمر ربهم، وأنهم مطبق عليهم الأرض، وكأنهم لم يكونوا، إنها إرادة رب السماء والأرض حتى يبين لهم أن فعلهم ما سبقه غيرهم من العالمين، فكان عقاب لم يسبق لأحد من العالمين، وكان موعدهم الصبح، وهو ما بين آخر الليل وطلوع النهار، وقد كان بعدما غادرنا القرية كما أمرنا المولي أن نغادرها.

وبعدما حدث عذابهم وإذ أشرقت الشمس على الأرض، وقتها دخل لوط صواغر، فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الرب من السماء، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض، ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح.

- كيف يا أبي؟

قال:

- سوف تأتيهم الصيحة، وما أدركنا ما هي هذه الصيحة، إنها قاضية مقضية، منهية لأي أمر كان إنس أو جان، في أي مكان وزمان، ترجرج الكون وما فيه، مزلزلة الأبدان، فكيف بي إن دنوت من أذنيك، وأصيح فيها بكل ما أعطاني الله من صوت وصياح، كيف بكِ تفعلين، لن تصمدي أو حتى تسمعي.

وما كان منها إلا أن قامت من جوار أبيها فزعة من هول التفسير، حتى أنها التفتت عن أبيها تخشى أن يفعلها، وارتعشت الأخرى صوتًا وجسدًا قائلة:

- أهذا كان مصيرهم؟ الفزع والألم وفقدان السمع وقشعريرة في البدن مع عدم الاتزان!

- هكذا كان أمر الله أن يفقدهم اتزانهم بعد الصيحة، وكانت يا ابنتي الصيحة بها ذبذبة لا طاقة لبشر بمثلها على الأرض، حتى خر كل إنس وجن، وعلمت أيضًا أن هناك طنينًا مع الذبذبة، وكان العقاب الأكثر تبيانًا أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا، بل الضرر هو كل ما يتقنوه، وكم كنت أود أن أقول لهم كذبتم بما أتيتكم من عند رب حكيم، ورضيتم بما ارتضيتم به من الكفر والعار وقتل الأحرار والجهر بالعصيان.

- يا الله يا أبي، الأمر مرير على النفس، كلما أتذكر حالهم بعد الصيحة وما لقوه منها.

- بل إنها الصيحة الربانية المعاقبة لكل جبار في الأرض، وعلمت أن لهذا الصوت الشديد الناتج من ارتجاج هوائي، له ذبذبة عالية، وهي أشد أسباب التدمير فتكًا، فكانوا يضعون أيديهم على آذانهم من الصواعق، وكم كانوا يتمنون الموت الذي كانوا عنه غافلين لاهيين، غير مصدقين ما أنذرتهم به، ونراهم اليوم متخبطين، لا يدركون ما هم عليه، وكل ما يأملون هو الخلاص من هذا الصوت الذي يزلزل أبدانهم، وأصبح لا شفيع لهم، ولا هم بسائلين إلا على أنفسهم، ولا عن أولادهم أو آبائهم أو نسائهم، فقط أنفسهم، ولكن هيهات كيف يتخلصون من عذابهم فلا ناصر أو نصير لهم، ولا نجاة مما هم فيه.

- وهل ماتوا بعدها يا أبي أم ماذا حدث لهم؟ صف لنا.

- فقد علمت أيضا ان رب العزة أنزل عليهم مطرًا جارفًا حارقًا، يلسعهم ويكاد يكويهم، وأصبح الجو جافًا حارقًا، والهواء شحيح، وكانت السماء صفراء ترسل اللسعات غير المرئية، وما تصل على أجسادهم التي استحبوها وأباحوها لكل من يريدها، وكانوا بذنوبهم مجاهرين ومعلنين، وعلى جنوحهم دائمين لاهيين، غير مصدقين أن عذاب الله واقع، بل إنهم كانوا يتطاولون، حتى أنهم كانوا يقولوه لي أرنا هذا العذاب إن كنت من الصادقين «ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ».

- وماذا بعد؟

- فكانوا على هذا الحال معذبين وملتاعين، يصطدمون بعضهم ببعض، وكما كانوا فخورين بصوتهم العالي، هم أيضًا يصيحون من الألم، يطالبون بالنجاة، وأن منهم من كان يناجي ويترجى، ويقول ما إن ينتهي الأمر هذا لسوف يعود تقيًّا سويًّا، وكان هذا من أثر العذاب الذي يلاقونه، ولكني موقن أنهم إن عادوا ورفع عنهم العذاب لردوا إلى ما كانوا عليه في غيهم، إنهم يريدون يتوقف عذابهم لينجوا، ولا نجاة من أمر الله، إلا هو فقط، ونسوا ما كنا ننهيهم عنه من أفعال الخلاعة والفجور وافتعال كل ما هو إثم، وفقدانهم لدورهم كرجال، ومجانسة الرجال والنفور من نسائهم، والبقاء على حالهم المذري المشين. والآن هم يتلوون وينزفون من آذانهم دماء، لا يملكون إيقافها، من كل جانب يصيبهم، ولا يترك أحدًا منهم أبدًا، ومن حاول أن يختبئ أو حتى يتوارى يجد ما لا يطيق، وكانت أصواتهم ونحيبهم وارتطامهم ببعض، والبحث عن هواء ينجيهم مما هم فيه، إلا أن أمر الله نافذ. وهكذا كان وعد الله مفعولا

وردت ابنتاه في قول واحد:

- نعم فوعد الله مفعول.

وقالت إحداهن:

- وهل الملائكة الذين أتوا إلينا هم من كانوا مكلفين بذلك؟

وأجابها لوط: نعم ابنتي هم.

- وهل كان هناك عذاب آخر واقع عليهم بعد هذه الصيحة «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ»، نعم كان هناك المزيد، بل إن رب العزة قد أمطر عليهم بحجارة كالمطر، وهى من سجيل، أي صغيرة الحجم ثقيلة في الأثر على الكافرين، «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ»، من سجيل إن في ذلك آيات للمتوسمين، وهي حجارة من طين صغيرة الحجم وهي تصيب ولا تخيب صاحبها، وكلها محصورة على كل كافر لا تزيد أو تنقص أبدا، حتى إن كل حجر مكتوب عليه اسم من يقذف به .ومن كان منهم غائب في أثناء إطباق الأرض عليهم، أو شارد من أهل القرى فقد رماهم ربهم بالحجارة فأودت بهم جزاء لما كانوا يفعلون من الفواحش. اقتلعهم جبريل بطرف جناحيه من قرارهم جميعًا.

وقالت ابنته: جميع المدن يا أبي؟

وأجابها بهزة من رأسه.

- أجل كامل القرى الخمس، عدا هذه القرية صواغر،

وهل تعلمان أيضًا أن أول من مات فيها شرفاؤها وأعيانها وزعماؤها. أمطرهم ربنا بحجارة من سجيل حجارة صُنِعَتْ من طين لا يعلم كُنْهَه إلا الله سبحانه والطين إذا تحجَّر سُمّي سجيل.

- يا أبي وهل أنبأك ملائكة الله الحكيم عن موت أمنا والهة، وما بال النساء يعذبون أيضا بعمل رجالهم؟

فقال لهم:

- إن الله عدل والعدل من أسمائه، فقد كان الرجل يستغني بالرجل والنساء بالنساء، فوجب عليهم العذاب جميعًا، وقد نالت أمكم ما نالته من عذاب واقع. ما نال أهلها وأصابها ما أصابهم جميعًا، فلم ينج منهم أحد، فعند شروق الشمس ونحن هنا في صواغر.

متممات لا بد منها

منح رب العزة، سبحانه وتعالى، العديد من الملذات لبني الإنسان، وفي الحق هي كثيرة ومنوعة، «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ».

سواء في المأكل والمشرب والتذوق، والكثير من زينة الحياة الدنيا، مثل حب تملك المال، وكذا البنون وغيرها، كما منح وأحل لنا الله الملذات، وميز كل منها عن الأخرى، كالغريزة الجنسية، واستحلال الفروج بين الرجل والمرآة، وهذا الاستحلال يتم بكلمة من الرجل وقبول للمرآة كزوج، وميز رب العزة هذه الغريزة لا لشيء إلا لإبقاء النوع، لأن كلما علت هذه الغريزة حلت الذرية على الأرض، وكلما بقي النوع زاد العباد، وحتى يظل النوع البشري قائم ومنفذًا لمشيئة خالقه، وإذا استحللت الفروج ومن غير ذلك فهي فاحشة وفجر.

إذ أن هذه اللذة من أعلى الغرائز، كونها السبيل إلى الذرية، قل هذا سبيلي، وبما أن الخالق خلق ذلك، فلا يصح أو يكون هناك خلاف ذلك الأمر، ولا يجوز للإنسان أن يتخذ غير ذلك سبيلا، فالتواصل والتلاحم للغريزة الجنسية لا يكون إلا بين

نوعين، قل جنسين من البشر، فلا يصح أن يكون بين نوع واحد، رجل كان أو امرأة، لأنها لن تكون لذة طبيعية، بل هي خرق للمتبع والمأمور به، ولن تكون وقت ذاك متعة بل علة ونتائجها خرق للعادة وللناموس البشرى، بل هناك مخالفة للخالق لعدم اتباع نواهيه، طالما كان منهي عنها بأمره، كونها تصب في المقام الأول لصالح الرجل أو المرأة، والأهم من ذلك أن النهي أتى من الخالق جل وعلا.

فهي محرمات لاهية، ومن الكبائر المنهي عنها، مثل أن يأتي الرجل الرجل، هنا لن تكون متعة بل هي خرق ومعصية، لأنه فعل لم يسبق أن قام به من قبل أحد في العالمين سوى قوم لوط، ثم أصبح وباء تفشى بين كثير من العباد، وهو أمر لا يبرأ بالدواء بل ببتر الداء، ففعل إتيان الرجال لهذا الداء ببعضهم بعضًا أمر فاحش، ولم يقم به أحد من قبل القرى الخمس سدوم وعمورة وغيرهم، بل هو تحذير من انتهاء النوع الذي أمر الله أن يكون، وجزاء من فعلوها أن لعنوا، وانقلبت بهم الأرض، وأصابهم وابل من حجارة سجيل مسومة على كل حي.

ولأن وباء قوم لوط ما يزال ينتشر بل ويزيد حتى الآن، ويشوه وجه الحقيقة، بل ودوام على المخالفة والتكبر على النواهي الربانية ممن يمارسوها، وأظنها لعنة وإصرار

على فرض النواهي، وعلى المضي فيها، ليس هذا فقط، بل وتحليلها بحجج وتفاسير لا تشفي من مرض، بل تعنت واستمراء على ما حرمه الله

وما إن بحثت أو تخيلت أنني أبحث عن لعنة قوم لوط، وكثرت الأسئلة التي راودتني عنهم، وكان أولها كيف أتت ثم انتشرت واستشرت، وما زالت حتى أصبحت وباءً عامًا، يصيب كل عليل عويل، ويضعه على أعتاب المعصية، وحاولت أن أجيب عن هذه الأسئلة بقدر ما علمت، ولأن البحث العام يدعونا إلى التساؤل عمن يكون ألد أعداء الإنسانية، والذي يريد أن يكدسها تكديسا في كم من المعاصي، وفي سبيل ذلك يستخدم كل أذنابه وذيوله، سواء من البشر أو من أقرانه وتابعيه، ولا شك في الإجابة؛ إنه الشيطان الرجيم الذي وعد بذلك أمام رب العرش العظيم، أن يضل البشر ويرميهم في أتون المعاصي. فكان منه أن ضل وأضل، فكان بعض من الإنس مطيع له فيما يفتن به، بل زادت أدواته للنيل من الأنس، فطوع الغير بما ابتلي، ومن هذا البلاء ما أفتن قوم لوط به، ألا وهو إتيان الرجل للرجل، والنساء للنساء، ومعاشرتهم جنسيًا، وتدعى هذه العادة باللواط و السحاق، وأصبح من ابتلي بالداء يدعو كل ملتاع ومريض بضعف أن ينصاع للهوان، يتحول إلى تابع لما يهواه، وبالتأكيد كانت حيل الشيطان مقنعة.

والأكيد والمؤكد، ومنذ انتهاء قوم لوط منذ ألاف السنين، ما زالت اللعنة قائمة بل وتزداد مع مرور الأيام، ففي البدايات كان قوم لوط، وبرغم من قضاء الله فيهم والقضاء عليهم، إلا أنه ما تزال مسخهم من بني البشر يحيا ويفسد، وينتشرون كانتشار النار في الهشيم.

الآفة اللوطية تعود بقوة، وأصبحت وباءً يعم الكثيرين من البشر، طالما التبريرات البشرية التي يتفوه بها الكثير من العلماء والمفكرين ورجال فكر بل ودين وعقيدة هي المسموعة، وجلهم يتناسوا المعصية المؤكدة، ويبررون اللذة الفانية، ونسوا قول الله في كتبه وتحولوا إلى عباد اللذة لا عباد الله.

وللذكرى والتذكرة التي تنفع الصالحين، مسلمين كانوا وحتى صابئين، فقد سجل القرآن عمن غرهم الشيطان، وانساقوا مرحبين ومهللين بالمعصية، وهؤلاء أمم أغرتهم متاع الحياة الدنيا، ولم يفكروا فيما وراء ذلك، وجعلهما هذا السعي المندفع وراء المادة واللذة، لا يبالوا قط بكل القيم النبيلة لحياة الإنسان كقوم عاد وثمود، والتهافت على جمع المال واللذة، وترك عبادة الله الواحد، وتعبدهم لأصنام هم صانعوها، وبعد كل ذلك كان كل همهم أن ينخرطوا في المجتمع، فيهوي بهم إلى عالمهم السحيق، وفي أعماق الفساد

الخلقي، وهذا ما فعله قوم لوط، ولأن فعلهم ما زال باقيًا حتى الآن، وسيستمر حتى تقوم الساعة، وبالتالي سمي على اسمهم بلغات كثيرة فمثلا مسمى الشذوذ الجنسي باليونانية هي حرفيا اللواط، ومن الإنجليزية مشتقة من كلمة سدوم، وبالعربية لوط، وهذا المصطلح لم يتغير لأكثر من 5000 عام، كما قال الأنبا تكلا هيمانوت. ومن المعلوم علمًا وفعلاً أن اللواط ليس مرضا يعالج بالدواء، بل بأشياء أخرى يصعب حصرها في جملة أو حتى استعراض لغوي من أب كاتب أو باحث، والغريب أن التحذيرات والوعظ والتنبيهات والنصائح التي تنادي من كل المنابر الدينية والإنسانية؛ تحذر وتندد بهذا الفعل المنكر الكريه، المنبوذ والمكروه بالفطرة والسليقة، وتأباها النفس البشرية التي خلقها الله على الفطرة السليمة، فقد قيل عن الرسول الكريم صل الله عليه واله وسلم: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» رواة الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عمر بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن العباس.

مثل ما قيل في اليهودية في اللاويين 18-22 « وَلاَ تُضَاجِعْ ذَكَرًا مُضَاجَعَةَ امْرَأَةٍ» «وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ ذَكَرٍ اضْطِجَاعَ امْرَأَةٍ، فَقَدْ فَعَلاَ كِلاَهُمَا رِجْسًا. إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا.» (لا 20: 13).

وكما في الإنجيل: لا مضاجعو ذكور يرثون ملكوت الرب»
– ا كونثوس 6.

المصادر

إبراهيم أبو الأنبياء: عباس محمود العقاد

مع الأنبياء والرسل: عبد الحليم محمود

قصص الأنبياء: عبد الوهاب النجار

قصص الأنبياء للحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي

قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس لابن إسحاق احمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي

محمود جودة السحار: محمد رسول الله والذين معه جزء2

قصص الأنبياء والتاريخ د رشدي البداوي جزآن

نساء الإنجيل أمال عبد الله

اللاهوت عبد الجواد ياسين

متخيل أحداث قصص الأنبياء والرسل محمد يوسف إدريس

السيرة الذاتية

صدر للكاتب

حكاوي عزبة جورجي «مجموعة قصص»

عيسى نبي والحسين ابن بنت النبي «بحث»

الباتعة سبارس «رواية»

الجمل بما حمل «سيرة غيرية»

63 حارة طمان عزبة جورجي

محام بالنقض

Aesmail99@gmail.com